اخترنا لك ٣٤

PAUL JOHNSON

Assistant Editor of the 'New Statesman & Nation'

THE SUEZ WAR

with an introduction by

ANEURIN BEVAN

حرب السويس

اخترنا لك ...
٣٤

حرب السويس

تأليف
بول جونسون

قدم له
أنورين بيفان

دار المعارف بمصر

ملتزم الطبع والنشر دار المعارف بمصر



الرئيس جمال عبد الناصر

تقديم

هل كان المحافظون على حق فى غزو مصر ؟

لم يحدث قط فى الآونة الحديثة أن كان البريطانيون منقسمين بهذه الدرجة بالنسبة لموضوع حيوى للمصالح الوطنية كهذا الأمر ، ولم يحدث قط أن قامت مثل هذه المحاولات الحمقاء لإخفاء الحقيقة عن الشعب البريطانى . .

هذه هى القصة الكاملة لحرب إيدن ، تبدأ بسحب العون الغربى لتمويل مشروع السد العالى ولوضع عبد الناصر يده على القنال كما تصور لنا المفاوضات المتعثرة خلال شهرى أغسطس وسبتمبر وتوضح أصل المؤامرة الإنجليزية الفرنسية مع إسرائيل وتصف فشل نزول القوات فى بورسعيد .

ماذا حدث فى اجتماع باريس السرى فى السادس عشر من أكتوبر؟

ومن الوزراء البريطانيون الذين ناصروا إسرائيل ؟

وهل كان هناك انشقاق فى الوزارة ؟

وما هو الدور الذى لعبه بتلر ؟

وهل كانت مصر موافقة على التفاوض من أجل تسوية نزاع القنال ؟

وما هو الخطأ الذى وقع فى عملية إنزال قوات الحلفاء ؟

وكيف أضرت حرب إيدن باقتصادنا ومكانتنا ؟

هذه الأسئلة وأسئلة أخرى حيوية كثيرة قد عرضت وأجيب عنها فى هذا الكتاب ، ومن الدراسة الدقيقة للوثائق والتحقيقات الصحفية ومن المحادثات مع السياسيين والرسميين والجنود والمراسلين نسج بول جونسون من كل هذا القصة الحقيقية لحرب السويس .

إنها قصة الخداع والغش وعدم الاختصاص الفريدة من نوعها فى تاريخ الحكومة البريطانية . إنها تلقى ضوءاً كاشفاً على نشاط بعض الزعماء السياسيين والصحف التى ساندتهم . .

إن الكتاب يطالب فى النهاية بإجراء تحقيق دقيق فى هذا الموضوع .. فإن هناك كثيراً من الآثمين من بين قادة الشعب البريطانى اليوم .. فإذا لم يكشف أمرهم وينالوا جزاءهم . . فإن كل بريطانى يعد نفسه مشتركاً معهم فى هذا الإثم . .

مقدمة

بقلم
أنورين بيفان

إن العالم كله تقريباً فى دهشة وغضب وأسى من المغامرة الأنجلو–فرنسية فى مصر . فليس من المفهوم إطلاقاً كيف يمكن لرجال سياسة لهم كل هذه الخبرة مثل السير أنطونى إيدن ومسيو جى موليه — أن يقدموا على عمل جنونى كهذا ، لأنه حتى إذا قدر لمغامرتهم أن تنجح فى تحقيق أهدافهم العسكرية فإنها كانت ستعتبر أيضاً عملا جنونياً .. وحتى إذا احتلت القوة التى أرسلاها بورسعيد والإسماعيلية والسويس ، فإنه ليس من الميسور أن نفهم أى فائدة يمكن أن تجنيها فرنسا وبريطانيا من وراء هذا .. بل حتى إذا أمكن تنحية جمال عبد الناصر وإحلال حكومة صورية محله تأتمر بأمر بريطانيا وفرنسا . فكيف يمكن لمثل هذا الوضع أن يكفل مروراً دائماً دون أية عقبات فى قناة طولها مائة ميل يقيم فيها مصريون معادون ؟ إن الأغراض من تخريب هذا الممر المائى الضيق لاحصر لها ، ووضع حراسة عسكرية لمنع حدوث هذا التخريب كان سيحمل بريطانيا وفرنسا ما لا طاقة لهما به من إنهاك لمواردهما ..

وماذا عن البترول نفسه ؟ هل كانت الوزارتان الفرنسية والبريطانية

تعتقدان ولو للحظة واحدة أن الدول العربية لم تكن لتحس بالغضب القاتل إذا نجح المعتدون فى عمل انقلاب ضد دولة من كبريات جيرانهم ، ويرأسها رجل يعتبر فى أعين هذه الدول البطل الذى واجه الاستعمار ؟ هل كان هناك أى ضمان يؤمن تدفق البترول دون انقطاع بعد كل هذه الظروف ؟ وحتى إذا كان هناك ضمان لبيع بترول العرب إلى الدول الغربية يعتبر فى صالح هذه الدول فإن آلافاً مؤلفة من المسلمين الذين يستبد بهم الغضب كانوا سينسفون أنابيب البترول الممتدة فى الصحراء بدون حراسة .

ماذا إذن كان فى ذهن الحكومتين الفرنسية والبريطانية ؟

ما الحالة الذهنية التى دفعتهما إلى تلك الإجراءات التى لا يمكن أن تصل بهما إلى أهدافهما ؟ ماذا حدا بهما إلى هجر فنون الدبلوماسية والمفاوضات وأن يلجأا إلى عمل أغضب حلفاءهما وضايق أصدقاءهما وجرد التزاماتهما نحو الأمم المتحدة من الشرف . .

إننى أعتقد أن أسباب ذلك يرجع إلى حالة اليأس المتزايد التى يجب أن تتحمل الولايات المتحدة شطراً منها . إن مقدمات تحقيق سياسة سلمية إيجابية — التى كان يرجوها بعضنا — حطمها سحب الولايات المتحدة ثم بريطانيا عرضهما لتمويل سد أسوان فى مصر ، وقد وضح منذ مدة طويلة لدراسة أحوال الشرق الأوسط أن اعتماد أوربا كلية على بترول الشرق الأوسط كان يستلزم اتباع خطط طويلة لإصلاح أحوال الجماهير فى الشرق الأوسط ، ليس فى الدول العربية المنتجة للبترول فقط ولكن فى تلك الدول التى لا تملك البترول أيضاً . .

ومن السخف غير المتصور أن نعتقد أن سكان الشرق الأوسط كانوا سيستمرون فى رعاية الثروة التى تتدفق من أراضيهم للمحافظة على رفع مستوى معيشة أوربا الغربية وخلق أصحاب ملايين جدد فى أوربا من وراء البترول دون أن يطالبوا بنصيب لأنفسهم فى الوقت نفسه .

فإذا أضفت إلى هذا فى حسابك ذلك التوتر والعلاقات الملتهبة بين إسرائيل وجيرانها العرب ، والتى يزيد من حدتها باستمرار وجود ثلاثة أرباع مليون لاجئ من فلسطين يعيشون فى بؤس شديد وفقر مدقع ، فإنك تصل إلى فهم الحالة التى كانت تغلى حتى توشك أن تنفجر حتى يصعب عليك أن تسامح حكومات الولايات المتحدة وفرنسا وإنجلترا التى لم تقم بعمل حاسم إزاء ذلك .

ولا شك أن جزءاً كبيراً من اللوم يقع على جمال عبد الناصر لمحاولته غير الحكيمة لأن يضرب الدول الغربية بروسيا والعكس بالعكس ، ولكن إذا كان التعاون المثمر معدوماً بين الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا فكيف نلومه على محاولته الصيد فى نفس المياه المضطربة ؟

وحالة اليأس المتزايد التى سبق أن أشرت إليها كانت تصاحبها حالة أخرى بين أتباع جى موليه والسير أنطونى إيدن ، حالة شاذة من الحنين إلى الماضى ، الماضى الذى كانت فيه إرادة هاتين الدولتين تنفذ بالقوة العسكرية ، فإذا تذكرت أن بريطانيا وفرنسا يتحملان من جراء ضغط واقع عليهما من أمريكا — عبئاً ثقيلاً من الأسلحة فقد كان من الصعب إقناع ساسة بريطانيا وفرنسا أن هذه الأسلحة لا فائدة منها إطلاقاً فى

إقناع الرئيس جمال عبد الناصر بأن يلبى رغباتهما .

إذن ما فائدة جهاز حرب ضخم بهذا الشكل إذا كان لا يمكن استخدامه ضد دولة صغيرة ضعيفة وثائرة عنيدة مثل مصر ؟ لقد كان هذا هو نفس منطق الرؤساء السوفييت عندما واجهتهم مقاومة المجر . فمن الصعب على أناس حصروا أنفسهم بين ثنايا التفكير القديم التقليدى أن يعيدوا التفكير فى وظيفة القوات المسلحة فى المجتمع المصرى ، من الصعب عليهم أن يفهموا أن الأهداف التى كانت القوات المسلحة تستخدم لها منذ أقدم العصور للوصول إليها ، هذه الأهداف لا يمكن تحقيقها الآن بالقوة وأن آلات الحرب الضخمة هذه — الثقيلة العبء من جميع الوجوه — أصبح لا محل لها فى المجتمع الذى نعيش فيه . وليس ذلك بسبب البطولة التى يظهرها المدنيون ، كما حدث فى المجر ، التى جعلت من استعمال الدبابات سخفاً وحمقاً ، ولكن أيضاً لأن جهاز الحرب ، بينما يستطيع أن يستولى على هدف عسكرى محدد ويحتفظ به ، إلا أنه لا يمكن أن يعيد بناء مجتمع بأسره .

ولا يمكن استخدامه من أجل قيام سياسات اجتماعية وسياسية طويلة الأجل ، لأن هذه السياسات تنمو وتختمر فى عقول الرجال والنساء ولا يمكن خلقها أو إيجادها بالآلات الصماء للجيوش والأساطيل البحرية والجوية .

فضلا عن ذلك ، فإننا لو فكرنا فى القنبلة الهيدروجينية لوجدنا أننا وصلنا إلى أزمة فى شئون البشر حيث أصبحت جميع طاقاتهم واتجاهاتهم وطرق تفكيرهم وقيمهم القديمة تنصهر لتتكون من جديد ، فإما أن نعدل

من تفكيرنا ليتلاءم مع هذه الأحوال الجديدة وإما أن نتعثر ونتخبط حتى تنتهي بنا الحال إلى كارثة محتومة .

وإذا كان هذا الجنون الخالد من بريطانيا وفرنسا سيضطرنا إلى أن نتعمق فى التفكير حتى نصل إلى جذور المشكلة الإنسانية ، أمكننا إذن استخلاص بعض الفائدة من هذه الأزمة . وفى هذا الكتاب الصغير يروى لكم بول جونسون القصة ويعطى معلومات تاريخية عن الإجراء الإنجليزى الفرنسى ، ويضع أمامنا صورة صادقة للسياسة الفرنسية ، ومعلومات واسعة عن العلاقات الدولية ، بذهن حاد وقلم رائع .

وقد لا أشارك بول جونسون كل آرائه وتقديراته للحقائق ، ولكننى أوصى كل من يهمه فهم هذه المأساة على حقيقتها أن يقرأ هذا الكتاب .

الفصل الأول

هدوء قبل . . . العاصفة !

فى أصيل يوم الخميس ١٩ يوليو سنة ١٩٥٦ استدعى المستر جون فوستر دلاس وزير الخارجية الأمريكية إلى مكتبه فى الوزارة السيد أحمد حسين سفير مصر فى واشنطن وسلمه كتاباً تعلن فيه الحكومة الأمريكية أنها سحبت عرضها بالمساهمة بمبلغ ٥٦ مليون جنيه لتمويل مشروع سد أسوان .

وهرع أحمد حسين إلى سفارته وهو ممتقع غضباً ليبلغ النبأ تليفونياً إلى الدكتور محمود فوزى وزير خارجية مصر فى القاهرة . . . ولكنه كان قد تأخر أكثر مما يجب . .

فقد كان الدكتور فوزى عالماً بالأمر . . ذلك أن دلاس خلافاً للعرف الدبلوماسى كان قد وزع على الصحافة نص الكتاب قبل تسليمه إلى الدول ذات الصلة بالموضوع .

وفى اليوم التالى فى لندن أبلغ السير هارولد كاشيا (Harold Caccia) الوكيل الدائم لوزارة الخارجية البريطانية ، السفير المصرى فى لندن بأن بريطانيا كذلك قررت أن تسحب القرض الذى كانت ستدفعه إلى مصر ومقداره ١٥ مليون جنيه تقريباً لتمويل سد أسوان

وفى مساء اليوم نفسه أعلن رئيس البنك الدولى يوجين بلاك أنه نظراً للقرار الأنجلو أمريكى لم يعد يستطيع البنك أن يقرض مصر مبلغ المائتى مليون دولار التى وعدها به منذ أسبوع سابق .

وقد أورد دلاس فى كتابه أسباب إحجام أمريكا عن تنفيذ وعدها بتمويل المشروع بأن مصر لم توافق على مختلف التعديلات المقترح إدخالها على المشروع وعلى شكوك أمريكا فى قدرة مصر على توفير مبلغ السبعمائة مليون دولار — الذى كان بمثابة حصة مصر فى تكاليف المشروع .

على أن كتاب دلاس كان مجموعة مغالطات ذلك أن الشروط الأمريكية التى أرسلت إلى مصر فى مذكرة شفهية فى ديسمبر سنة ١٩٥٦ قد قبلت مصر معظمها بعد شهر واحد ثم عاد السفير المصرى فى واشنطن قبل سحب العرض الأمريكى بأسبوع ومعه تعليمات بأن يقبل باقى الشروط . . .

ويبدو أن المغالطة الأمريكية كانت تخفى وراءها شيئاً آخر .

ففى الأشهر العشرة التى سبقت سحب العرض الأمريكى كانت مصر تشترى شحنات متزايدة الأهمية من الدول الشرقية .. فقد علم أنها قايضت فى أبريل قطناً بمبلغ ٢٠٠ مليون دولار بعدد من طائرات ميج ١٥ وميج ١٧ التشيكوسلوفاكية الصنع ودبابات ستالين الثقيلة .

كما أن نشر الميزانية المصرية فى ٩ يوليو كشف الستار عن أن مخصصات الدفاع الوطنى قد زادت من ١٨ إلى ٢٥ فى المائة من مجموع اعتمادات الميزانية، أى أن مصر خصصت عام ١٩٥٧ مبلغ ٥٤ مليون

جنيه للتسلح ومليونين و ٩٠٠ ألف جنيه لسد أسوان ولذلك فإن الخبراء الاقتصاديين فى وزارة الخارجية الأمريكية حكموا بأن مصر ستقصر عن تقديم حصتها فى مشروع السد العالى .

وقد كان هذا الرأى يخالف رأى البنك الدولى الذى كان قد توصل يوم ١٢ يوليو سنة ١٩٥٥ مع السفير بوشنطن إلى اتفاق لم يكن ينقصه إلا التوقيع عندما أعلن دالاس نبأ سحب العروض الأمريكية لتمويل المشروع .

والسؤال الذى يجب توجيهه الآن هو :

ما هى إذن الأسباب الحقيقية لسحب العرض الأمريكى ؟

لقد كان هناك سببان ، أولهما أن دالاس تحمل ضغطاً شديداً من الكونجرس لحذف أو إنقاص اعتمادات المساعدات الخارجية الأمريكية. وفى ذلك الوقت كان مجلس الشيوخ الأمريكى راغباً أشد الرغبة فى أن يصفى أعمال دورته ليهرب الأعضاء من حر واشنطن القائظ الذى كان سبباً فى إدخال الضيق على نفوسهم . .

وهكذا فإن لجنة الاعتمادات فى مجلس الشيوخ كانت قد طلبت قبل أسبوع إلى دالاس أن يتخلى عن مشروع تمويل سد أسوان .

ولكن دالاس رفض ذلك فى تردد . .

وبالإضافة إلى ذلك أبدى ممثلو مزارعى القطن بين كواليس الكونجرس يوم ١٧ يوليو رغبتهم فى أن يمنع زيادة محصول القطن فى منطقة الشرق الأوسط الذى بات مضموناً أمره .

وقد زار هؤلاء الممثلون دالاس وانتزعوا منه وعداً بأن يعيد النظر فى القضية . .

والواقع أن دالاس كان يتنبه بطريقته الارتجالية غير النظامية إلى اتخاذ قرار سياسى حاسم يتناول سياسة الولايات المتحدة حيال مصر . .

فقد درجت الولايات المتحدة منذ الحرب الماضية على تأييد مصر كتدبير مضاد للاستعمار البريطانى فى الشرق الأوسط وكدليل على صداقتها للأمم الناشئة فى آسيا وأفريقيا . .

وكان السفير الأمريكى فى القاهرة هنرى بايرود كثير التحمس لمصر وكثير المسايرة لحكومة عبد الناصر يسانده كلية فى ذلك رئيسه فى وزارة الخارجية المستر جورج آلن المكلف بشئون الشرق الأوسط .

وكان جورج آلن الذى يكره الاستعمار قد لعب دوراً حاسماً فى الحيلولة دون انضمام أمريكا إلى حلف بغداد الذى تشرف عليه بريطانيا ، كما لعب هذا الدور فى توثيق العلاقات الودية بين الولايات المتحدة والعربية السعودية عدوة بريطانيا التقليدية فى منطقة الخليج الفارسى واستطاع الرجلان أن يجعلا من تأييد عبد الناصر حجر الزاوية فى سياسة أمريكا فى الشرق الأوسط . .

إلا أن دالاس فى الواقع كان قبيل حلول أصيل نهار الخميس « الرهيب » يرقب الرئيس عبد الناصر بكره متزايد . .

ذلك لأنه اعتبر أن قرار الرئيس عبد الناصر بشراء الأسلحة الروسية ، قد سمح لروسيا أن تتخطى بقفزة واحدة الحزام الشمالى الذى أقامته بريطانيا

من دول حلف بغداد وبذلك استطاعت للمرة الأولى فى التاريخ ، أن تلعب دوراً فعالا فى الشرق الأوسط . .

ولقد كره دالاس أن يرى السفن الروسية تفرغ فى الإسكندرية طائرات ميج ١٥ وكره أكثر وأكثر ما سمعه من أن السفارة الروسية فى القاهرة قد زادت عدد موظفيها من ٤٠ إلى ١٥٠ موظفاً ومن أن الفنيين الروس يتدفقون على مصر . .

وكره دالاس أن يلومه البريطانيون ويعتبوا عليه بدعوى أنه يؤيد عبد الناصر ضدهم . .

كما كره دالاس كذلك اتساع أفق القومية العربية التطورية وظل شهوراً يخفى هذا الكره، ولكن القشة التى قصمت ظهر البعير فى منطق دالاس وجعلته يغير اتجاه السياسة الأمريكية كانت متجسدة فيما سمعه من أنباء تقول إن الرئيس عبد الناصر سيشترك فى بريونى مع نهرو وتيتو فى مؤتمر وصفته الصحافة بأنه « مؤتمر الدول الحيادية » . .

وبالطبع فإن هذا المؤتمر كان قد عقد دون موافقة دالاس أو تشجيعه . .

وقرأ دالاس بشىء كثير من الأسى الصحف المليئة بصور مؤتمر بريونى وأنباء نجاحه التى استفزته أيما استفزاز ، فما كادت تنصرم أيام حتى كان قد وصل إلى قرار تبلور أول ما تبلور فى استبدال سفيره فى القاهرة هنرى بايرودو بنقل جورج آلن من وزارة الخارجية الأمريكية . .

وكان ذلك بالنسبة للعالمين ببواطن الأمور له دلالته فيما سيجد من

أحداث ، ولذا أعطت ــ التايمز ــ اللندنية هذا الخبر مركز الصدارة بين أنبائها فى اليوم التالى . .

وسارت الأمور فى مجراها واعتزم دالاس أن يوجه تحذيراً لمصر .. كما قرر بعد أن قابل عملاء ملوك القطن الأمريكيين فى كواليس الكونجرس أن يجعله أكثر حدة .

وهكذا فقد اتصل تليفونيًّا فى أصيل ذلك اليوم بالرئيس أيزنهاور ليحصل على موافقته على سحب المساعدة الأمريكية لمشروع سد أسوان .

أما أيزنهاور الذى كان يلعب الجولف والذى لم يكن كثير الولع بقضية تمويل سد أسوان ، فقد أبلغ دالاس بأن يمضى قدماً . .

وهكذا أسدل الستار على المقدمة . . .

وتمت الخطوة الأولى نحو الفاجعة . . . فاجعة السويس . . .

والواقع أن القرار الأمريكى بسحب العروض لتمويل مشروع خزان أسوان قد فاجأ لندن . . مع أن مثل هذا العمل لم يخالج إيدن أو وزارة الخارجية البريطانية حيال المشروع .

وكان المستر سلوين لويد وزير الخارجية البريطانية يعتبر عبد الناصر عدوًّا قوميًّا منذ مارس ١٩٥٦ عند ما دبر الرئيس عبد الناصر ــ أو هكذا ظن ساوين لويد ــ عملية طرد جلوب رجل بريطانيا وعينها الساهرة فى الأردن . . وعند ما ظن أن الرئيس عبد الناصر قد رتب موعد طرد جلوب ليكون كمصادفة مفتعلة مع وقت زيارة ساوين اويد الرسمية للقاهرة .

ولذلك لم يكن سلوين لويد متحمساً لمشروع خليق بأن يشل من

ساعد حكومة عبد الناصر . .

إلا أنه فى الوقت نفسه كان يرى مع كثير من زملائه فى الوزارة أن مساعدة بريطانيا بتمويل المشروع هى نموذج من « الأتاوة » المتزايدة التى يجب على الغرب أن يدفعها لإبقاء الدول المحايدة خارج نطاق النفوذ السوفياتى . وهكذا فقد كانت الحكومة البريطانية تعتبر المسألة شبه منتهية ومن ثم فوجئ أنطونى إيدن مفاجأة كبرى عند ما اتصل به دالاس تليفونياً يوم ١٨ يولية ليبلغه بأنه سيسحب العرض الأمريكى بتمويل مشروع أسوان فى اليوم التالى . .

ولم يكن أمام إيدن من سبيل إلا اتباع رأى الولايات المتحدة .

وعلى هذا الأساس مثل سلوين لويد بعد ظهر الجمعة فى مجلس العموم الذى تغيب نصف أعضائه وسيطر الملل فيه على الباقين ، ليعلن أن الحكومة البريطانية قد أنبأت الحكومة المصرية أنها لم تستطع أن تجعل لمشروع أسوان الأفضلية اللازمة لتأمين نجاحه . .

وكما أشرنا سابقاً فإن الحكومة البريطانية لم تبحث فى الواقع القرار إنما كانت تتبع النهج الأمريكى دون مناقشة . . وهو النهج الذى عزف اللحن الأول من سمفونية مأساة السويس .

أما صدى هذا القرار الخطير فقد تبلور فى تعليقات صحفية شتى متنافرة إذ فوجئت مجلة « تايم » بالنبأ الذى اضطرها إلى إصدار حكم سريع عليه قبل أن تدور مطابعها فكان أن أقرت قرار دالاس واعتبرته « تدبيراً حاسماً » ووصفته بأنه « ضربة معلم » بهرت أنفاس الدبلوماسيين

المعترفين بما انطوى عليه من جرأة وصواب» . .

أما جريدة التايمز اللندنية فقد كانت أكثر حذراً فقد استصوبت صحة أسباب تراجع الحكومة البريطانية عن المساهمة بتمويل المشروع ولكنها أضافت بأنها تقترح البحث فى مشروع آخر لتنظيم الاستفادة من مياه النيل . .

وفى الوقت نفسه انتقدت بعض الصحف اليسارية البريطانية القرار الحكومى، فى حين كتبت « الإيكونومست » بلهجة يغلب عليها الأسى أكثر مما يغلب عليها الحزن . . تقول :

إن الحكومتين البريطانية والأمريكية لا تستطيعان تهنئة نفسيهما على اتخاذهما هذا القرار ،فهو ليس كما تعتبرانه «ضربة معلم» فى السياسة . .

وجاء رد الفعل من القاهرة سريعاً وهائلا . . فمشروع سد أسوان يعتبر فى مصر قضية حياة أو موت، فهو يهدف إلى حجز ٣٢ مليون متر مكعب من المياه سنوياً عن طريق إنشاء خزان هائل يمتد مسافة ٧٣٩ ميلا مربعاً ليمكن مصر من أن تضيف إلى أراضيها المروية زهاء مليونى فدان ومن أن تزيد من دوراتهـا الزراعية وتضاعف طاقتها الكهربائية .

وهكذا، فلم يكن السد مجرد أربعة أميال من الأسمنت المسلح إنما كان يمثل مستقبل مصر ومستقبل الثورة التحريرية المصرية .

ولكن هل يترتب على سحب المساهمة الغربية الجزئية تبديد أحلام مصر وأمانيها ؟

كان أول ما فعله الرئيس عبد الناصر هو أنه اتصل بسفير مصر فى موسكو . .

وكانت روسيا فى خريف سنة ١٩٥٥ قد تناولت بالانتقاد الشروط التى وضعها الغرب مقابل مساعداته وقروضه لمصر ووصفتها بأنها شروط استعمارية وعرضت أن تمول هى مشروع سد أسوان .

ولكن العرض الروسى جاء غامضاً بشكل ما ففضل الرئيس عبدالناصر أن يتجه إلى الغرب لمعاونته على بناء السد .

أما وقد فعل الغرب ما فعل فقد اتجه الرئيس عبد الناصر إلى روسيا ، ولكن روسيا كانت مشغولة الفكر بأشياء أخرى منها الاضطراب الخفى الذى كان يعتمل فى بولونيا . .

وبعد دراسة الموضوع أعلن شبيلوف فى ٢١ يوليو ١٩٥٦ — أن روسيا لا تدرس فى الوقت الحاضر مسألة تمويلها مشروع أسوان .

وهكذا تبلورت الأوضاع وتبين أن مصر يجب أن تعتمد على نفسها بنفسها ، إلا أن المناورة الأمريكية — البريطانية ما كان يجب أن تمر دون جواب فكان أول ما فعلته مصر أن اعترفت بالصين الشعبية كبرى دول مؤتمر باندونج . .

ولكن هذه الضربة المعنوية ما كانت لتكفى . وكان لا بد من ضربة أخرى تحرر مصر من آخر رباط بالاستعمار الغربى ، وتستعيد بها حقاً أساسياً من حقوقها .

وهكذا طلب الرئيس عبد الناصر يوم الأحد ٢٣ يوليو ١٩٥٦ إلى

فريق من الخبراء القانونيين والهندسيين برئاسة الدكتور بهجت بدوى أن يضعوا خطة استعادة قناة السويس باسم شركتها حتى يمكن تنفيذها فى الأسبوع التالى . .

ولم يطل الأمر باللجنة ، فقد رفعت تقريرها يوم الثلاثاء وقالت فيه :

« بما أن الشركة مصرية فإن تأميمها هو عمل من أعمال مزاولة السيادة التى لا يمكن الاعتراض عليها بموجب أى قانون دولى . . »

ورفعت اللجنة مع تقريرها مسودة مشروع قانون تأميم الشركة مع لائحة بأسماء مديرين مصريين ليحلوا محل مديرى الشركة المؤسسة وأرفقت ذلك بخطط تكفل الإشراف على إدارة القناة .

والواقع أن اللجنة أحسنت أداء مهمتها . . . وبسرعة . . .

وفى يوم الخميس . . وجه الرئيس عبد الناصر ضربته بعد أن توجه رجال الشرطة إلى مقر الشركة يحملون مرسوم التأميم وبسطوا السيادة المصرية على مكاتبها وأبلغوا الموظفين وبخاصة البريطانيين والفرنسيين بأنهم سيكونون — حتى إشعار آخر — عرضة للعقاب إذا رفضوا مواصلة العمل أو حاولوا عرقلته .

وفى نفس الليلة أعلن الرئيس عبد الناصر النبأ أمام جمهور يقدر مجموعه بأكثر من ١٠٠ ألف نسمة احتشد فى الإسكندرية فهاج المكان وماج واندفعت الجماهير فى نشوة تهتف هتافاً مدوياً للعمل الرائع .

وفى تلك الليلة وقف الرئيس عبد الناصر يتكلم ساعتين ونصف الساعة أمام مكبرات الصوت والعرق ينضح منه وهو يمسك الميكرفون بكلتا يديه

فاستعرض السياسة الخارجية المصرية منذ أن قامت حكومة الثورة وهتف من أعماق القلب فى الجماهير المتجاوبة معه بأن مصر ستحصل رسوم المرور لتقيم سد أسوان ووجه كلامه إلى الأمريكيين قائلا :

« أيها الأمريكيون : موتوا بغيظكم . . إن الدخل السنوى لشركة قناة السويس يبلغ ١٠٠ مليون دولار فلماذا لا نأخذه لأنفسنا ؟ . .

إننا سنبنى السد العالى كما نشاء .. وستؤمم القناة وسيديرها مصريون ».

وكهربت هذه الكلمات الجماهير بنشوة العزة القومية فترنحت طرباً وهى تهتف من أعماق القلوب واهتزت الأرض من تصفيقها . . . وقد وصف مراقب أجنبى هذه الخطة وصفاً ينطوى على النفسية الاستعمارية فى تصوير الانتفاضات القومية فقال :

لقد كان عبد الناصر كساحر ماهر أخرج من بطن الأرض كتائب البغضاء والغضب . . عبر آسيا وأفريقيا وكهرب كلامه مئات الملايين هناك وأحدث تأثيراً عالمياً . فى جاكارتا على بعد ٣ آلاف ميل من القاهرة حذت أندونيسيا حذو القاهرة وأنكرت الديون (المصطنعة) التى قيدتها بها هولندا يوم كانت تحتلها وتمص خيراتها .

وفى دمشق طلب نواب فى البرلمان السورى إلى جميع الأقطار العربية أن تؤمم شركات البترول الواقعة فى أراضيها .

وللمرة الأولى بدا أن مصالح الغرب الاستعمارية فى بلاد الجماهير المنتفضة فى الشرق الأوسط ـ بدا أنها تعانى الخطر. وإنها لشىء هام إذ تقدر بزهاء ١٠ آلاف مليون جنيه إسترلينى

الفصل الثانى

شبح مونيخ يطل من جديد

السويس . . . اسم يرن فى آذان الدول الاستعمارية مثل الرقية السحرية . . .

وبالنسبة لفرنسا كانت القناة أعظم عمل فردى مضمخ بالعبقرية الفرنسية ، وكانت كذلك تعبيراً مجيداً عن حلم عبقرى خالج المهندس العبقرى الذى تفخر به . . فرديناند ديلسبس . .

كانت فرنسا تنسى أن القناة هى التى اجتذبت الاستعمار إلى مصر ، ولكنها تبرر نسيانها بأن القناة صورة من رسالتها التمدنية . .

ولكن شيئاً أهم من هذه العاطفة الرومانطيقية يكمن وراء التفاخر الفرنسى فقد كانت شركة القناة معظمها فرنسية . .

وكان مقرها الرئيسى فى باريس وكان المديرون الفرنسيون هم الذين يسيطرون عليها وكان أكثر فنييها وخبرائها من الفرنسيين وكان يحمل أسهمها عشرات الألوف من صغار البورجوازيين الفرنسيين . .

وأهم من ذلك كانت شركة قناة السويس آخر معقل دولى للرأسمال الفرنسى .

أجل فإفريقيا الشمالية تلتهب بالنار .. وحدود الإمبراطورية الفرنسية

تنحسر فى كل مكان أمام الموجة التحررية ؛ أما فرنسا فلم تعد إلا دولة فقيرة مهزومة مضطرة إلى أن تتسول الدولارات من أمريكا . . . أما السويس . . . أما القناة التى كانت لا تزال تدار من باريس بهدوء واطمئنان فقد كانت ذكرى حية للماضى المجيد .

وماذا عن بريطانيا ؟ ؟

كانت السويس بالنسبة للبريطانيين بمثابة نقطة جمارك تمر بها الدول وتدفع ضريبة مرورها للإمبراطورية .

وكانت قناة السويس تمثل ذكريات الفتح الإمبراطورى . فنها عبرت القوات البريطانية لتفتح كابول وماندلاى وكوالا لامبور فى الملايو . . ومنها مر على رأس جنودهم أولئك الذين يدعونهم ببناة الإمبراطوريات مثل كبلنج وروبرتوس وكرزن وكتشنر . .

نعم لقد مر بها كبلنج شاعر الإمبراطورية مع غيره كطريق إمبراطورى إلى الهند وإلى كنوز الشرق . .

وخلال ثكناتها فى أبى صوير والإسماعيلية مر ملايين الجنود البريطانيين فى الحربين العالميتين الماضيتين .

وكانت السويس تمثل فى أذهان البريطانيين سيرة دزرائيلى أمير الدهاء فى السياسة الاستعمارية البريطانية . . إنه رئيس وزراء بريطانيا اليهودى الذى أدهش العالم ذات مساء بدهائه إذ اشترى على مسئوليته أسهم قناة السويس من الخديوى وكشف بذلك لأوربا عن جبروت الجنيه الإسترلينى . . الجبروت الذى ورثه الدولار بعد أن لعب دوره

الكبير فى إفساد الذمم وإقامة المستعمرات البريطانية فى كل مكان .

أجل كانت فرنسا وبريطانيا تنفعلان بالذكريات التاريخية إذ جاءهما النبأ بتأميم القناة . . . وكانتا حتى يومنا هذا تتكبدان الكثير من العناء فى محاولاتهما تقويم نفسيهما لتنسجما مع قيم القرن العشرين، وكانتا تسيران سيراً متباطئاً للانسجام مع عالم جديد بدت فيه كلمة « الاستعمار » كلمة قذرة ينبو عنها الضمير الإنسانى . .

وإذا كان أول رد فعل لتأميم القناة فى بريطانيا وفرنسا واندفاع الذكريات التاريخية فى شكل غضب عاطفى شد عليهما الخناق ، فإن ما تلاه من رد فعل كان أكثر عنفاً وتعنتاً وجبروتاً . .

لقد كانت قناة السويس بالنسبة لبريطانيا القرن التاسع عشر . . يوم كانت تهيمن على المحيطات وتدعى سيدة البحار ، ويوم كانت تبسط ظلال الإمبراطوريات على قارات بأجمعها . . كانت قناة السويس شيئاً حيوياً جداً للإمبراطورية . .

ولكنها اليوم أكثر أهمية من قبل لبريطانيا القرن العشرين . . . بريطانيا التى ينحسر نفوذها شرقاً وغرباً . . كالعانس التى فقدت الشباب والمال وأصرت على الاحتفاظ بالمظهر الخلاب .

وهكذا بينما كانت وزارة الخارجية البريطانية تتصل بحليفاتها فى حلف الأطلسى يوم ٢٧ يوليو ١٩٥٦ اليوم التالى للتأميم ، كان خبراء الخزينة البريطانية يعكفون على عمل عسير . . كانوا يحسبون نتائج التأميم بحساب الجنيهات وبراميل الزيت والمنافع غير المشروعة التى يفوتها التأميم

على بريطانيا . . ووضح لهؤلاء الخبراء أن الموقف خطير فعلا . . فقد بينت لهم أرقامهم أن الرئيس عبد الناصر أمسك بخناق بريطانيا . .

فى العام الذى سبق التأميم عبر القناة ١٤,٦٦٦ سفينة منها ٤٣٥٨ سفينة بريطانية تبلغ حمولتها ربع حمولة كل السفن التى عبرت القناة ، وكان من تلك السفن ناقلات البترول التى تحمل زهاء ثلاثة أرباع واردات بريطانيا من البترول ، فإذا ما توقفت الملاحة فى القناة فإن بريطانيا مضطرة إلى إعادة فرض قيود على البترول بعد أسبوع وسيؤثر ذلك على الصناعة البريطانية تأثيراً خطيراً فى بحر أسبوعين .

أما النتائج البعيدة المدى لتوقف الملاحة فهى أدهى وأخطر .

فى عشية تأميم شركة القناة كانت بريطانيا تعد العدة لرفع مستوى المعيشة عندها بنسبة ٣ ٪ معتمدة فى ذلك على قدرتها على زيادة الطاقة الكهربائية . . وعلى أساس أن كل واحد فى المائة زيادة فى مستوى معيشتها يقتضى زيادة ٧ فى الألف من الاستهلاك الكهربائى .

وهذا يعنى بالأرقام الجامدة أن استهلاك الوقود فى عام ١٩٥٨ سيبلغ زهاء ٤٣٠ مليون طن من الفحم أو ما يعادله .

وحتى تتيسر الطاقة الذرية بكميات كبرى ، وهذا لن يتم قبل ٢٠ عاماً ، فإن شطراً كبيراً من زيادة استهلاك الوقود اللازم لاستهلاك بريطانيا سيبلغ عام ١٩٥٨ زهاء ٩٠ مليون طن من الفحم أو ما يعادله من البترول .

وبالطبع ليس فى استطاعة بريطانيا أن تدفع ثمن ذلك بالدولار ، وهذا يعنى أن عليها أن تستورده من الشرق الأوسط ، وهذا يقضى أن

البترول يجب أن يمر عبر قناة السويس .

وبالاختصار فإن القناة كانت بمثابة المفتاح لأبواب مستقبل رفاهية بريطانيا .

ولهذا فقد افترض أولئك الخبراء السؤال التالى :

ماذا يحدث لو أن المصريين رفضوا السماح لسفننا بعبور القناة كما يفعلون حيال سفن إسرائيل ؟

ويعنى الجواب عن هذا السؤال الافتراضى هو أن على ناقلات البترول البريطانية أن تلف حول رأس الرجاء الصالح . . أى أن تزيد أسبوعين على رحلتها العادية من الشرق الأوسط إلى الموانئ البريطانية وهذا يؤدى بالتالى إلى زيادة ٣٠٪ فى نفقات الشحن، وبالإضافة إلى ذلك ليس هناك ما يكفى من الناقلات للتغلب على هذه العراقيل ، ذلك لأن الطلب العالمى على النفط فى ازدياد بحيث إن جميع مصانع بناء ناقلات البترول مرتبطة بعقود حتى ١٩٦٠ ولا تستطيع قبلها أن تتعاقد على بناء سفن بترولية . وفوق ذلك ليس فى العالم سوى ٣ مصانع تستطيع أن تبنى ناقلات بترول حتى تجعل من عملية نقل البترول إلى بريطانيا عن طريق رأس الرجاء الصالح اقتراحاً جدياً يمكن النظر فيه . . .

ولكن ماذا عن تكاليف هذه العملية ؟

إن التكاليف لا تصدق . . . فنقل ١٠٠ مليون طن من البترول من الخليج الفارسى إلى أوربا عبر السويس يتطلب ما حمولته ١٤ مليون طن من ناقلات البترول، أما نقل نفس هذه الكمية عن طريق رأس

الرجاء الصالح فيتطلب زيادة فى الناقلات حمولتها ٧ ملايين و ٥٠٠ ألف طن يكلف بناؤها ٥٠٠ مليون جنيه إسترليني .

وهذه الناقلات الإضافية لا تكفى إلا لمواجهة الاحتياجات الراهنة التى تتزايد باستمرار ، بحيث يتحتم على بريطانيا أن تضاعف حمولة ناقلاتها البترولية كل ١٠ سنوات .

أما نتيجة ذلك فإنها تجر زيادة محتومة مستمرة لا فى سعر البترول فحسب ، بل فى سعر جميع البضائع التى تنتجها الصناعات المستهلكة للبترول .

وانتقل خبراء بريطانيا مدفوعين بافتراضات قائمة على شكوكهم الاستعمارية يتساءلون :

ولكن ماذا يحدث لو سمح لنا الرئيس عبد الناصر بمواصلة استخدام القناة وفق شروطه ؟

ومرة أخرى افترض الخبراء أنه سيزيد من رسوم العبور البالغ معدلها حالياً ٨ آلاف جنيه عن كل سفينة . . . . لأن مواجهة تكاليف تنفيذ سد أسوان من رسوم القناة ستتطلب ذلك . . بالإضافة إلى أن هناك مشروعات لدى شركة القناة تهدف إلى تحسين الملاحة فى القناة ، بحيث تعبرها ٤٨ سفينة يومياً عام ١٩٦٠ .

ولكن هذه التحسينات كلها لا تكفى فى الواقع لمواجهة الحاجة فى أوربا إلى البترول . . . فهى حاجة متزايدة ستتطلب بعد عام ١٩٦٠ استيراد زهاء ٢٠٠ مليون طن من البترول سنويا .

أما كيف تمر هذه الكمية إلى أوربا فالجواب واضح . . . ويكمن في بناء أنابيب للنفط لنقل البترول بتكاليف أرخص عبر سوريا ولبنان وعلى طول القناة بالذات بواسطة خط بترولي يكلف ١٢٠ مليون جنيه ويستغرق إنشاؤه ٨ سنوات .

وتساءل الخبراء البريطانيون مدفوعين بتعصباتهم الاستعمارية ماذا يحدث لو أن الغرب لم « يعاقب » الرئيس عبد الناصر ؟ ألا يحذو حذوه آخرون ؟ وماذا يحدث لشركتي البترول البريطانيتين الجبارتين في العراق والكويت وهما وحدهما تنتجان أكثر من ثلثي البترول الذي تستهلكه بريطانيا .

وهل يستمر تدفق البترول إلى بريطانيا إذا أممت تلك الشركات في البلاد العربية . . . بل هل يرضى أصحابها الجدد بتمويلنا بالزيت ؟ . .

لعلهم لا يرضون بأن تدفع لهم بريطانيا الثمن بالإسترليني . . فهم يفضلون الدولار كما يفضلون الكاديلاكات على الأوستن . .

وتساءل أولئك الخبراء .

ماذا نفعل حينئذ ؟

إن ميزان المدفوعات البريطانية سيصبح في وضع خطير بحيث تضطر بريطانيا إلى تخفيض الاستيراد وحصره في البضائع الأساسية الجوهرية مثل الخشب والفولاذ .

وخلص الخبراء إلى نتيجة هي أن بريطانيا ستعاني أبشع أزمة صناعية في تاريخها إذا سد الرئيس عبد الناصر القناة في وجهها . . وأن مشروعاتها

الرامية إلى رفع مستوى حياتها يجب أن توضع على الرف إذا كانت القناة فى حوزة مصر ، حتى إذا لم تقفل فى وجه السفن البريطانية .

وقال أولئك الخبراء إن مستقبل مصر قد يعتمد على سد أسوان ولكن القناة هى مستقبل بريطانيا بالذات . .

وقد رفع الخبراء خلاصة لهذه التقديرات إلى أنطونى إيدن وكانت الخلاصة كافية لكى تصيبه بالذعر الشديد . . ولكى تجرنا إلى طريق الحماقات . .

ولو أن صوتاً أكثر حكمة ارتفع آنذاك لكان إيدن أقل ذعراً فقد كان فى استطاعة ذلك الصوت الحكيم أن يذكر إيدن بأن بريطانيا هى على عتبات العصر الذرى وأن بناء المركز الذرى البريطانى لإنتاج الكهرباء هو على وشك الانتهاء ، وأن الوقود المحلى الصنع سيتوفر بكثرة بسعر رخيص فى مدى عشرين عاماً ، وأن بريطانيا تستطيع أن تؤمن من البترول العربى ما لا غنى لها عنه فى بحر العشرين سنة القادمة ، إذا لعبت أوراقها بمهارة . .

أجل يرتفع صوت حكيم يقول :

وهذه الضجة الكبرى علام ؟ لماذا لا نسمح للرئيس عبد الناصر بأن يحتفظ بالسيادة المصرية على القناة ونتوصل معه إلى تدبير عملى ؟ . . ما وجه الخطأ فى أن ترفع بريطانيا قليلا رسوم البترول التى تدفعها لمشايخ الخليج الفارسى . . على أساس المناصفة مثلا ؟ . .

لقد كان ذلك هو المبدأ الذى عملت على أساسه « أرامكو »

فى السعودية فلم تعان أية متاعب . .

إلاأن خبراء وزارة المالية لم يقدموا مثل ذلك الكلام الحكيم إلى إيدن .

بل كانوا هم الذين خلفوا الوزارة فى حالة اضطراب وانفعال . . . مشفوعة بنوع من الهستيريا ، فقد أعيد مؤخراً تنظيم وزارة المالية وألحقت بها إدارة لوضع المشروعات البعيدة المدى ، ولذا فقد كانت جانحة بطبيعة الحال إلى أن تقيم تفكيرها على أساس المشروعات البعيدة المدى المعتمدة على الأحوال الراهنة غير حاسبة حساباً للنكسات .

وكانت الإدارة حديثة العهد تريد أن تبرهن على ذاتها . . ولذا فقد انتهزت فرصة كيما تزاول نفوذها المعنوى فوجدت استجابة لها عند أنطونى إيدن .

والواقع أن إيدن كان خير من تمده وتملؤه بالمخاوف والشكوك والذعر . . لقد كان وزير خارجية ناجحاً . . وبرلمانيا قديراً وخطيباً موهوباً تطاوعه اللغة ولكن حتى المعجبين به جداً لم يكونوا يدعون بأنه شخصيةاقتصادية ، أو ينسبون إليه المعرفة بالاقتصاد . .

وبالإضافة إلى كل ذلك كانت هناك فى نظر الاستعماريين عوامل واعتبارات أخرى فاستعادة عبد الناصر لقناة السويس لم تكن فى نظرهم ضربة طارئة على بريطانيا إنما اعتبروها الذروة فى حملة نظامية ضد المصالح البريطانية فى الشرق الأوسط . . . . هذه المصالح التى كتب عنها بعد أسابيع من تأميم القناة السير ونستون تشرشل يقول : «إن علاقات بريطانيا بمنطقة الشرق الأوسط هى علاقات طويلة الأمد عريقة ومشرفة ».

أجل لقد كانت تلك العلاقات عريقة وطويلة الأمد ولكن هل كانت مشرفة ؟. . . .

فى أعقاب جيش « أللنبى » الزاحف على طول الساحل الشرقى من البحر الأبيض المتوسط فى نهاية الحرب الأولى جاء جيل كامل من المستشارين والجنود البريطانيين . . . ولما جلا الجيش البريطانى بقى هؤلاء . . . . ليصنعوا من حطام الإمبراطورية العثمانية التى « حرروها » سلسلة من الممالك .

وكانت الغاية من إقامة ذلك النوع من الممالك تأمين طريق برى للإمبراطورية البريطانية إلى الهند ولوضع اليد على ينابيع البترول فى بلاد ما بين النهرين .

ولتحقق بريطانيا هذا الهدف عقدت حلفاً مع الهاشميين الذين يعتمدون حقًّا عليها فى حراسة الكعبة وفى السيادة على العرب والعشائر البدوية المنتشرة بين الخليج الفارسى حتى سواحل البحر المتوسط ، وهكذا أعطت ثلاثة من أفراد آل هاشم ثلاث ممالك وحمت مصالح الأسرة الهاشمية فى تلك الممالك بتزويدها بالمستشارين السياسيين البريطانيين والضباط البريطانيين والذهب البريطانى .

ومقابل ذلك لم تطلب بريطانيا سوى الطاعة والولاء . . . . والبترول .

ولثلاثين عاماً ظلت بريطانيا تحصل على الطاعة . . . . والبترول بواسطة بعض أولئك الزعماء العرب الذين حاربوا الأتراك مع بريطانيا ثم عقدوا أواصر الصداقة مع بريطانيا . . ومع أسيادهم البريطانيين .

وكانت صداقة مبنية على المصلحة . . . مصلحة بريطانيا فى أن تكون تلك الشعوب موالية لها وفى أن تستجلب بترولها وخيراتها ، ومصلحة أولئك الزعماء فى أن يظلوا فى جنة الحكم والسلطان . .

ولكن هذا الجيل القديم أوشك أن ينقرض عند ما دخلت الحرب العالمية الثانية ، واقتربت من النهاية .

أجل مات الملوك والزعماء أصدقاء بريطانيا وكان آخرهم المرحوم الملك عبد الله الذى اغتيل برصاصات شاب يحمل كراهية للبريطانيين. وفى إيران تنازل شاه إيران عن العرش عام ١٩٤١ وقتل رئيس وزراء إيران صديق بريطانيا الصدوق الجنرال رازمارا عام ١٩٥٢ ولم يبق من ذلك الجيل من الزعماء سوى نورى باشا السعيد رئيس وزراء العراق .

وقام جيل جديد فى العالم العربى لا يشاطر الجيل القديم نظرته إلى بريطانيا . . فليست بريطانيا فى نظر أفراده بالصديقة ولا برفيقة السلاح بل كان البريطانيون فى نظرهم طفيليين غرباء مدعين مرائين مخادعين يلعبون على المكشوف و بكل الوسائل .

وكان فى مسلك البريطانيين ما يدعم كراهية الجيل العربى الجديد لهم فقد ظلوا يعتبرون أنفسهم أوصياء على العرب ويعتبرون العرب قاصرين ، وظلوا يتجاهلون الأمانى والآمال القومية التى تساور الطبقة الوسطى فى البلاد العربية التى تقود حركة النضال . . . وظلوا يتعاونون . . . .

وظل العربى فى نظر المسئول البريطانى سواء فى الجيش أو فى الخارجية هو ذلك العربى كما وصفه لورانس فى كتاب « أعمدة الحكمة السبعة »

أى ذلك الرجل النبيل البرىء .. الممتطى فرساً بيضاء عبر مجاهل الصحراء.. المتمرد على الحضارة الوديع المطواع بين الأيدى الخبيرة .

أجل ظل العربى فى نظر أكثر البريطانيين حتى اليوم مخلوقاً لا يمت إلى الحياة الحضارية بصلة ولا يهتم بالصحافة وأرباح البترول أو بالديموقراطية .

وكانت هذه خطيئة بريطانيا الأولى، أما الثانية — ولعلها كانت خطيئة لا مفر منها — فقد كانت تكمن فى أنها جعلت آل هاشم أصدقاءها وبالتالى جعلت آل سعود أعداءها وهم الذين بسطوا سيادتهم على الحجاز على الرغم منها واستطاعوا أن يتحرروا منها ويستقلوا عن الارتباط بها على عكس الهاشميين .

واستطاع السعوديون بذلك أن يحتلوا عبر العالم العربى مقاماً رفيعاً بانين زعامتهم لا على أساس حقوقهم الملكية إنما على أساس كونهم يؤلفون القوة الوحيدة القادرة على أن تلهم العرب وتساعدهم على التحرر من الوصاية البريطانية .

وفى خلال الفترة الممتدة بين الحربين العالميتين ظل السعوديون يجابهون المكيدة البريطانية بالمكيدة وظلوا ينسفون بنجاح معاقل النفوذ البريطانى فى الممالك الهاشمية . . . حتى فى تلك الأيام التى كانوا فيها فقراء ليست لهم أية موارد بترولية . وعند ما تدفق البترول فى السعودية عام ١٩٤٦ وأخذت تستثمره أضخم شركة بترولية فى العالم أصبحت السعودية بعد عدة سنوات أعظم دولة منتجة للبترول فى العالم، ومن أرباح البترول أخذ

شطر غير قليل يذهب لمحاربة النفوذ البريطانى فى سوريا والعراق والأردن ، بل حتى فى عدن والمحميات والمشيخات القائمة على الخليج الفارسى .

وفى عام ١٩٥٢ وجدت السعودية حليفة جديدة قوية هى مصر . . أقوى الدول العربية طاقة وأكثرها بغضاً للاستعمار البريطانى . . . وعند ما جرفت الثورة فى مصر النظام الملكى ومفاسده أطلقت عقال المشاعر الوطنية التى أخذت تعتمل فى شكل موجات عارضة فى مصر . . . وعند ما تقلد الرئيس عبد الناصر أعنة الحكم . . . وصلت مصر إلى نهاية المرحلة الانتقالية . . . مرحلة التحرر المادى والنفسى . لقد انبثق الرئيس جمال عبد الناصر من صفوف الشعب فقد كان ابن موظف بريد فى قرية مصرية نائية وتثقف سياسيا باشتراكه مع الجيل الجديد فى قيادة المظاهرات فى شوارع المدن المصرية ضد البريطانيين وأثبت مهارته وبلاغته، وما إن أصدر كتابه «فلسفة الثورة» حتى أصبح الكتاب على الرغم من مسحة الاستعجال فى كتابته كتاب القومية العربية ووثيقة تعرب عن الاستياء الذى يخامر العرب من السيطرة الإنجليزية ــ الفرنسية فى منطقة الشرق الأوسط العربى .

ولقد حقق عبد الناصر أشياء مهمة كان أولها إخراجه القوات البريطانية من منطقة قناة السويس عام ١٩٥٤ فأزاح العقبة الأولى التى كانت تهدد الجانب العربى فى حالة استئناف الحرب بين العرب وإسرائيل . . .

وبعد ذلك أخذ يعمل على أن يجعل من الجيش المصرى أعظم طاقة عسكرية فى الشرق الأوسط فاحتلت ميزانية الدفاع الوطنى المقام الأول من الميزانية المصرية . . .

وسرعان ما أصبحت القاهرة — هذه المرة فعلا — محط آمال العرب في جولة منتظرة ضد إسرائيل وفي الكفاح الظافر من أجل تحرير البلاد العربية كلها من الاحتلال البريطاني والأجنبي . .

وهكذا أصبح الرئيس جمال عبد الناصر بعد عام ١٩٥٤ مضيف الزعماء السياسيين اللاجئين من الجزائر وتونس ومراكش بل من سوريا ولبنان . . .

وإلى كل مكان بعث برسله الأكفياء ينظمون الحركات السياسية الوطنية وأعمال الكفاح ضد البريطانيين .

أما السعودية فقد مولت هذه الحركات . . وبدأ العالم العربي يتوزع بين بغداد والقاهرة . .

وفي عام ١٩٥٥ عقدت مصر حلفاً مع السعودية يوحد القيادتين المصرية والسعودية تحت إمرة اللواء عبد الحكيم عامر وسرعان ما انضمت سوريا والأردن إلى الحلف . .

وفي سبتمبر ١٩٥٥ قام جمال عبد الناصر بضربة معلم بعقده صفقة الأسلحة مع روسيا متحرراً للمرة الأولى من الناحية العسكرية من الغرب، وأصبح يستطيع للمرة الأولى أن يحصل على كميات غير محدودة من الأسلحة تدفع أثمانها على أقساط طويلة الأمد . . .

وفي الوقت نفسه كانت السياسة البريطانية تستجيب لهذه التطورات استجابة بطيئة مفجعة . . على ضوء سياستها القديمة . .

فلقد ألزمت بريطانيا نفسها بموجب وعد بلفور بقضية إنشاء وطن

قومى لليهود فى فلسطين ولم يدرك أحد ما فى بريطانيا آنذاك أو فيما بعد عند ما حققت بريطانيا وعدها مدى ما ستكسب من جرائه من بغضاء العرب لها . . .

ولقد تم ذلك فى عهد بيفن على الرغم من كراهيته الشخصية لليهود .. فقد اضطر تحت وطأة النفوذ الصيهونى فى الخارجية البريطانية إلى أن يوافق على مبدأ تقسيم فلسطين بين العرب واليهود بعد انتهاء الانتداب البريطانى . . .

وانسحبت القوات البريطانية من فلسطين انسحاباً أكد حماقة السياسة البريطانية إذ أخفقت قبل الانسحاب فى إيجاد تسوية وتركت العرب واليهود يقتتلون وفاز اليهود بالجولة الأولى مدعمين بالمساعدات اليهودية البريطانية والأمريكية وبالمساعدات الغربية التى جعلت الغرب مسؤولا أمام العرب عن قيام إسرائيل وعن استمرارها فى الحرب . ..

ولقد استمرت حماقة السياسة البريطانية بعد عام ١٩٤٨ ففى عام ١٩٥٠ وقعت بريطانيا مع فرنسا والولايات المتحدة البيان الثلاثى الذى يعد بعبارة غامضة أن تهب الدول الثلاث لمساعدة أى فريق فى النزاع العربى الإسرائيلى يتعرض أولا للهجوم .

ولكن الدول الثلاث لم تتخذ أية خطوات لإنشاء قوة بوليس ثلاثية لهذه الغاية أو لإجبار العرب على الاعتراف بحدود هدنة ١٩٤٨ أو لدفع الأمم المتحدة لوضع تسوية نهائية للمشكلة الفلسطينية .

ولم يكن هنالك من مظاهر الاهتمام بالقضية سوى لجنة مراقبة الأمم

المتحدة ذات الجهاز الضيق للتحقيق فى حوادث الحدود العربية الإسرائيلية وفى الوقت عينه لم تعط هيئة الرقابة الدولية فى فلسطين أية صلاحية لتوقيع العقوبات على الفريق المذنب .

وعندما رفضت مصر عام ١٩٥٢ أن تسمح للسفن الإسرائيلية بالمرور عبر قناة السويس لجأت إسرائيل إلى مجلس الأمن فصوتت أمريكا وبريطانيا وفرنسا فى صالح إسرائيل ضد مصر على قرار يحتم على مصر السماح للسفن الإسرائيلية بعبور القناة ولكن مصر رفضت تنفيذ هذا القرار .

ولم تكن قرارات مجلس الأمن الأخرى أوفر حظاً . فلا أقل من ٢٠ مناسبة بين ١٩٤٨ و ١٩٥٦ رفعت فيها قضية النزاع العربى — الإسرائيلى إلى مجلس الأمن وفى كل مرة كان المجلس يمتنع عن اتخاذ أى عمل فعال . . .

وكانت السياسة البريطانية فى خلال هذه السنوات مقتصرة على حفظ التوازن فى التسلح وهذا يعنى عمليا أن تبيع بريطانيا لكل من الطرفين كميات محدودة من الأسلحة مما كان يدر عليها ربحاً وفيراً . .

ولكن الميزان سرعان ما اختل عندما اقتحمت سوريا ومصر طريقهما لشراء الأسلحة من الدول الشيوعية . . . ولم تستطع بريطانيا أن تفعل شيئاً كثيراً . . لتسليح إسرائيل فهى نفسها تفتقر إلى السلاح ولا تستطيع مزاحمة روسيا فى هذا المضمار . . .

والواقع أن السياسة البريطانية فى الشرق الأوسط بعد حرب فلسطين عام ١٩٤٨ قد ضلت الطريق وأصبحت بدون طعم أو لون ، ذلك أن موقف

بريطانيا من قضية فلسطين أثر تأثيراً عميقاً على علاقتها بدول الشرق الأوسط حيث كان رجال البترول البريطانيون الذين ينقبون عن الثروات البترولية فى الخليج الفارسى يشكون من افتقار السياسة البريطانية إلى خط سير واضح ثابت حاسم يقف فى وجه ما دعوه بالاستعمار السعودى الذى يتغلغل فى مشيخات وإمارات الخليج والذى لا يصادف مقاومة بريطانية .

وشهد عام ١٩٥٢ تغيراً فى الموقف عندما أمم الدكتور مصدق مصفاة النفط الكبرى للشركة الإنجليزية الإيرانية فى عبادان . .

ولم تستطع بريطانيا أن تتدخل لمنع ذلك بالقوة خوفاً من أن تجابهها روسيا بالمثل فى شمال إيران فكانت النتيجة أن تمت تسوية مشكلة البترول البريطانية ـ الإيرانية لمصلحة الأمريكيين وعلى حساب الخسارة الفادحة التى حلت بالبريطانيين .

ونتيجة للحدث الإيرانى أصبحت الكلمة العليا لدوائر البترول فى الخارجية البريطانية فأصبحت السياسة البريطانية أكثر عداوة للعرب . وبحجة مكافحة الشيوعية أنشأت بريطانيا حلف بغداد الذى أتم عملية توزيع العالم العربى وشطره إلى معسكرين وأضحى المعسكر الهاشمى فى بغداد أداة بريطانية . . .

ومنذ ذلك الحين اتجهت الحوادث اتجاهاً سريعاً نحو اختبار مقدرة كل من بريطانيا ومصر من أجل السيادة فى العالم العربى . . .

فى سبتمبر ١٩٥٥ حصل الرئيس جمال عبد الناصر على أول شحنة من الأسلحة التشيكية . . .

وفى الشهر عينه ردت عليه بريطانيا بمساندتها أمام محكمة دولية فى جنيف مزاعم سلطان مسقط وعمان بأن له حقوق السيادة على البوريمى التى تدين عشائرها بالولاء للسعودية .

ولكن المحكمة عقدت جلساتها فى جو من التشويش والفوضى ، وبعد شهر من ذلك لجأت بريطانيا إلى القوة المسلحة فاحتل جيش السلطان الذى يقوده ضباط بريطانيون واحة البوريمى . . وفى الوقت نفسه بدأت القاذفات والمقاتلات البريطانية تقصف قصفاً منظماً القبائل العربية داخل محمية عدن عندما شعرت القيادة البريطانية بأن هذه القبائل بدأت تستجيب لروح القومية العربية .

لجأت بريطانيا إلى السلاح فردت عليها مصر وحليفاتها . . تنغص عليها نفوذها فى الخليج الفارسى .

وجاء ديسمبر ١٩٥٥ لترتكب فيه بريطانيا خطيئة مميتة وذلك عندما أرادت أن تقسر الأردن على دخول حلف بغداد الذى دخلته تركيا وباكستان وإيران والعراق . . . .

ولكن الشعب الأردنى لم يعد كما كانت بريطانيا تظن . وقد خفيت هذه الحقيقة عن بريطانيا فكان أن اتخذت قراراً سياسيا هو فى ذروة الحماقة . . وأعنى به قرار إرسال الجنرال السير تمبلر (جلاد الملايو) إلى عمان لإقناع الحكومة الأردنية بدخول حلف بغداد . . ولقد أخفق تمبلر إخفاقاً ذريعاً وكسب بإخفاقه لبلاده عداء الملك حسين ومستشاريه . . .

وكان هذا الإخفاق خطوة حاسمة فى تطور السياسة الأردنية . وبعد

ثلاثة أشهر وقع الملك حسين على نسخة من مجلة فيها مقال — بعنوان « جلوب باشا ملك الأردن غير المتوج » يتناول نفوذ جلوب باشا فى الأردن وكيف أن هذا النفوذ يساعد على إبقاء الحكومة الأردنية موالية لبريطانيا مطاوعة لها .

واستعر غضب الملك الشاب . . . وأمر بإقالة جلوب . . .

خرج جلوب . . وخرجت الأردن من قبضة بريطانيا على الرغم من أن بريطانيا ظلت تحتفظ بثلاثة مطارات أردنية (ألغيت مؤخراً بموجب إلغاء المعاهدة) . .

وقد وصل نبأ إقالة جلوب إلى القاهرة أثناء حفلة عشاء رسمية أقامها الرئيس عبد الناصر لتكريم سلوين لويد وزير الخارجية البريطانية الذى كان يزور القاهرة زيارة رسمية . .

وقد أبلغ لوين لويد النبأ ببرقية خاصة بعد العشاء ولا بد أنه خلص إلى الاعتقاد بأن الرئيس عبد الناصر قد حدد بنفسه موعد إقالة جلوب ليصادف موعد زيارته ولتكون إهانة موجهة له .

وبعد أسبوع من الحدث الأردنى كان وزير الخارجية البريطانية سلوين لويد يزور البحرين عندما هاجمت الجماهير الغاضبة سيارته بالحجارة فى مظاهرة ضد المستشار البريطانى المكروه هناك السير تشارلس بلجريف .

واعتبر سلوين لويد الحادث إهانة شخصية دبرها له الرئيس عبد الناصر الذى كان أثناء ذلك يتم ترتيباته العسكرية مع سوريا واليمن والعربية

السعودية مؤمناً بالمزيد من المعدات العسكرية من المعسكر الشرقى .

وفى ١٩٥٦ أعلن عن عزمه على زيارة موسكو ، وبعد أسابيع عرض على الحكومة الأردنية بأنه مستعد لأن يحرر الأردن من المساعدة المالية البريطانية بالاشتراك مع سوريا والسعودية .

كان هذا هو الموقف فى الأسبوع الأخير من ١٩٥٦ حيث كانت بريطانيا ترى أن مصر تمول وتشجع حملة منظمة ضد المصالح البريطانية فى الشرق الأوسط وكانت تعتقد كذلك بأن الرئيس عبد الناصر يقود هذه الحملة بشكل مهين لعدد من السياسيين البريطانيين الحساسين .

وهكذا تحولت المسألة فى الجانب البريطانى إلى قضية خلاف شخصى . . .

وهناك عامل ثالث يجب أن يدخل فى اعتبارنا عند ما نفسر رد الفعل البريطانى حيال استعادة مصر سيادتها على قناة السويس وهذا العامل يكمن فى شخصية إيدن وطبيعته وهو الحائز على وسام ربطة الساق من درجة فارس ورئيس وزراء بريطانيا العظمى . . .

كان السير أنطونى إيدن سليل بارون من يوركشاير غريب الأطوار . . وقد تلقى ما يتلقاه أبناء الطبقة الراقية البريطانية من ثقافة تقليدية تنحصر فى كليات إيتون وكنيسة المسيح حيث أخذ أول درس فى اللغات الغربية وأجاد اللغة الفارسية وقليلا من العربية ثم انتظم فى سلاح الرماة المشاة الملكى ورافق كذلك الجيل الذى فنيت زبدته فى معارك الفلاندرز مع الألمان فى حرب ١٩١٤ — ١٩١٨ .

وطبقاً للمألوف سرعان ما أصبح أنطونى إيدن عضواً فى حزب المحافظين . . . بل عضواً مدللا إذ جعله المستر بلدوين وزيراً للخارجية وهو فى الثامنة والثلاثين فحسب .

ولقد استقال إيدن بعد ذلك بسنتين وبكثير من العناد احتجاجاً على ما دعاه بسياسة التهدئة التى ينتهجها تشمبرلن إزاء هتلر وموسولينى . . .

وما لبث أن أفاد أبلغ الإفادة من استقالته فلقد جرته هذه الاستقالة إلى التحالف مع ونستون تشرشل الذى جعله وزير خارجيته فى وزارة الحرب الائتلافية والذى عينه وريثاً سياسيا له عند ما انسحب تحت وطأة الشيخوخة من الحكم عام ١٩٥٥ .

لقد اعتبر إيدن زمناً طويلا بطلا من الأبطال الذين تمخضت عنهم أزمة مونيخ . . . وبطلا من أبطال مقاومة سياسة التهدئة حيال هتلر وموسولينى .

ولكن الواقع أنه لم يكن شيئاً من هذا القبيل .

بل كان فى الحقيقة أحد واضعى سياسة التهدئة حينذاك .

وكانت استقالته من وزارة الخارجية لأسباب شخصية وليست سياسية وقد ثبت أنها كانت تحت ضغط شديد من سكرتيره البرلمانى اللورد كرانبورن الذى أصبح فيما بعد مركيز سالزبورى .

إن سر استقالته يكمن فى أن إيدن كان يعارض ما درج عليه تشمبرلن من التصرف فى السياسة الخارجية البريطانية دون استشارته وهو وزير الخارجية . . . وقد كان هذا التصرف من تشمبرلن خطأ نظريا .

إلا أن إيدن الذى احتج عليه لم ينج منه عند ما أصبح رئيساً للوزراء وانفرد دون استشارة وزير خارجيته بتصريف السياسة الخارجية فى كثير من الظروف .

وعلى كل حال فإن إيدن لم يستخلص النتائج المنطقية لاستقالته من حكومة تشمبرلن ولم ينسجم معها بشكل يفرض عليه أن يخطب ويصوت ضدها إنما على العكس كان من أكثر مسانديها وداعة .

وربما أنب إيدن نفسه فيما تلا ذلك من سنين عند ما أثبتت الحوادث عقم سياسة مونيخ لأنه لم يعارض هذه السياسة معارضة أكثر فعالة .

وكان فى ذلك يشترك بقدر كبير مع كثيرين من ساسة حزب المحافظين ، وهذا الاتجاه كان لا يمكن التعلل منه قبل أن يتسلم مقاليد الحزب جيل جديد .

وهكذا فقد تعهد الكثيرون من أعضاء الحزب مدفوعين باعتقادهم بأنه كان فى الإمكان الحيلولة دون نشوب الحرب العالمية الثانية لو أن بريطانيا بكرت فى معارضة ومقاومة هتلر وموسولينى ، وقد تعهدوا بألا يجعلوا حزبهم مرة ثانية يقع فى مثل هذه الخطيئة الأدبية مرة ثانية .

وكان أبرزهم فى هذا الاتجاه آنطونى إيدن بالذات .

وبالتدريج أصبح هؤلاء المحافظون فريسة ما يمكن ان يدعى بعقدة مونيخ وهى عقدة جعلتهم يجنحون إلى استخلاص عبر مزيفة من الحقائق المعاصرة .

وهكذا كلما أشرفت سنة ١٩٥٦ على نهايتها كان الخلاف بين

بريطانيا وحكومة الرئيس عبد الناصر يزداد حدة وبخاصة وأن المحافظين بقيادة إيدن ما انفكوا يرون أن عبد الناصر فى مركزه وفى أهدافه ينطوى على أخطار مفجعة تهدد مصالح بريطانيا .

وعلى هذا الأساس أشاعوا أنه ديكتاتور وقالوا إن كتابه « فلسفة الثورة » هو نسخة بالعربية لكتاب « كفاحى » لهتلر. وقالوا إنه يبشر بالعنف والعدوان .

وصدق المحافظون أنفسهم فيما يقولون وعلى أساس هذه الأوهام خلصوا إلى الاعتقاد بأن عبد الناصر هو هتلر جديد ستدفع مطامعه العالم إلى هوة الحرب ما لم تتخذ الديموقراطية عملا حاسما قبل أن يفوت الأوان . . .

ونسوا فى الوقت نفسه أن مصر دولة ناشئة صغيرة الحجم تفتقر إلى الشيء الكثير حتى تعاود بناء كيانها الذى نخره سوس الاستعمار أكثر من ثلاثة أرباع القرن .

أجل لقد طغى التخوف من شبح مونيخ على الحقائق الجامدة وجاء تأميم شركة القناة فرصة لهؤلاء كيما يفتحوا لهذا الخوف فى أنفسهم كل النوافذ وشبهوا التأميم بالزحف الهتلرى الذى استعاد مقاطعة الراين عام ١٩٣٦ .

وفى غمرة هذه المشاعر الخيالية كانت عقدة مونيخ تهيمن على تفكير إيدن فكان أن صور لنفسه أن عبد الناصر قد ارتكب « عدواناً » وأن الرد عليه يجب أن يكون على الفور . . . يجب إبعاده عن الحكم لإنقاذ السلم العالمى . . .

كان المعروف عن إيدن أنه سياسى دولى حكيم من الطراز المجرب بل العميق التجربة فكيف وقع فى هذه الخطيئة الصنبيانية المؤسفة ؟

ربما كان إيدن — لو كانت الظروف عادية — خليقاً أن يرى تأميم القناة فى الضوء التاريخى والدولى الصحيح وأن يتصرف وفق ذلك .

ولكن ظروف إيدن لم تكن عادية . . .

إن التاريخ يقيم الدليل على أن الحروب لا يشعلها الرجال الأقوياء إنما الرجال الضعفاء . . . لا يوقد نارها رجال واثقون بالنفس بل رجال يائسون قانطون . . .

على ضوء هذه الحقيقة يمكننا أن نفهم حالة إيدن . . .

فمركز إيدن فى نهاية يولية سنة ١٩٥٦ لم يكن ضعيفاً فحسب بل كان كذلك يائساً فقد تسلم مقاليد رئاسة الوزراء من ونستون تشرشل بعد تسويف مقصود . . . وكانت الظروف التى تسلم فيها الرئاسة من أكثر الظروف التى كانت تنعم بريطانيا أثناءها بالرخاء . . .

فقد وفرت ميزانية ١٩٥٥ دخلا أكبر لعدد وفير من السكان . . . وقام إيدن بحل البرلمان وخاض معركة انتخابات جديدة عاد بعدها إلى البرلمان بأكثرية متزايدة مما يمكن أن يعتبر حادثاً فريداً فى التاريخ السياسى البريطانى فى القرن العشرين .

وفى خلال تلك المعركة الانتخابية كانت أكثر اللوحات استهواء للناخبين لوحة عليها صورة إيدن وقد كتب عليها «انتخبوا إيدن العامل من أجل السلام» . . .

وعلى هذا الأساس كان إيدن فى صيف ١٩٥٥ يتمتع بتأييد من حزبه فاق ما كان يتمتع به تشرشل من تأييد .

ولكن خيبة الأمل بدأت تفعل فعلها حالا . . .

وبدأ حلم الازدهار ينقشع أمام تيار قوى نحو تضخم النقد فى بريطانيا ، وأمام التدهور الشديد الذى أصاب ميزان المدفوعات البريطانية، حتى إن المستر بتلر وزير المالية اضطر فى أكتوبر ١٩٥٥ إلى أن يقدم ميزانية استثنائية ضربت بيد ظالمة على التسهيلات التى حفلت بها الميزانيات السابقة .

وبدأت همهمة الاستياء تتصاعد من بين صفوف المحافظين من أفراد الطبقة الوسطى وانتشرت إشاعات تقول إن إيدن قد تكشف عن رجل فاشل ميئوس منه فى الوزارة . . . وإنه لا يستطيع أن يقر على قرار وإلا لماذا تأخرت التعديلات الوزارية المتوقعة بعد الانتخابات كل هذا التأخر ؟ . . .

وبدأ الناس يتساءلون أيرجع ذلك إلى أن أنطونى إيدن الذى درج على أن يلعب دوراً ثانويا نجدا فى ظل تشرشل غير قادر على أن يقوم بأعباء القيادة ؟ . .

وما إن أطل شهر يناير حتى اندلعت العاصفة . . . .

وقد تجسد نذير تلك الفاجعة فيما فعلته جريدة الديلى تلغراف المعروف عنها أنها من أكثر مؤيدى حكومة حزب المحافظين اندفاعاً وإخلاصاً فقد نشرت مقالا تهاجم فيه هجوماً شنيعاً رئيس الوزراء إيدن قالت فيه إن

إيدن قد درج فى خطبه العامة على أن يضرب قبضة يده بصفحة كف يده الأخرى إشارة تأكيد لما يقول ولكن ضرباته ليست ويا للغرابة بمسموعة أبداً . . .

وقامت صحف أخرى من صحف المحافظين تحذو حذوها وفى مقدمتها الديلى ميل والسبيكتاتور . . . أما الأوبزرفر فقد روت أن هناك انتقادات واسعة النطاق بين صفوف نواب المحافظين ضد إيدن .

أما الديلى ميرور فقد أجملت تعليقات الصحف المحافظة بعنوان ضخم جاء فيه :

المحافظون يقولون إن إيدن هو حطام رجل

إن مدى ما تعرب عنه هذه الحملة الصحفية من مشاعر البريطانيين وبخاصة من مشاعر المحافظين حيال إيدن هو أمر جدير بالمناقشة .

فبالتأكيد لم يكن هناك خطر حقيقى بحدوث عصيان برلمانى على زعامة إيدن إذ على الأقل لم يكن هناك مرشح أقوى للحلول محله ، ولعل المستر بتلر قد أجمل مشاعر معظم المحافظين عند ما أشار إلى إيدن إشارة ذات تهكم خفى إذ قال إنه خير رئيس وزراء فى ميسورنا . . .

وهكذا فإن المحافظين ظلوا ملتفين حول إيدن يوالونه بالتأييد وظل إيدن يتلقى المثير المعجب من جهات متعددة وخاصة من اللورد بيفربروك

الاستعماري العريق الذي جعل صحيفته إيفننج ستاندارد تنشر سلسلة من المقالات تحت عنوان هازل هو :

– إيدن هو رئيس وزارة صالح . . .

ومع ذلك فإن تأثير الحملة على إيدن حوّله مما درج عليه كرجل معتدل يمثل مركز الثقل في حزب المحافظين بعد الحرب إلى رجل متطرف يتحين الفرصة في الآفاق السياسية ليظهر قوة حزبه . . .

وهكذا أصبح سريع التهيج والانفعال يجنح إلى الغضب المفاجئ وأصبحت عادته في إقفال التليفون في وجه محدثه معروفه جيداً . . . لقد أصبح إيدن بعد هذه الحملة نمراً سجيناً في قفص يغدو ويروح في جنبات مقر رئاسة الوزراء في رقم ١٠ شارع داوننج ستريت . . . مرتقباً الفرصة ليطلق العقال لقبضة حكومة جازمة .

فلما درس نص مرسوم الرئيس عبد الناصر بتأميم قناة السويس لم يشك لحظة في أن اللحظة المناسبة لكي يثبت فيها حزمه وعزمه قد واتته . . . في جو أيدت فيه عزمه على العمل عناصر كثيرة منها الانحدار العام في نظر بريطانيا نحو الفوضى في الشرق الأوسط . . . والذعر الضارب في الخزينة البريطانية وعقدة الخوف من اتهامه باتباع سياسة مونيخ . . .

إلا أنه لم يكن في استطاعة بريطانيا أن تعمل وحدها إذ كانت محتاجة إلى حلفاء ؛ وقد وجدتهم في باريس حيث كان رجال الحكم هناك أكثر يأساً وقنوطاً من إيدن .

الفصل الثالث

الرجال المتهورون فى باريس

إذا كانت السياسة البريطانية حيال العالم العربى قد عانت كثيراً من الغموض فإن الموقف فى فرنسا كان يخلو من الغموض والإبهام إذ أن فرنسا فى يوليو ١٩٥٦ كانت فى حرب مكشوفة مع العالم العربى فعلى طول شاطىء المغرب الممتد ألفى ميل وخاصة فى القسم الغربى من الإمبراطورية الإسلامية السابقة كانت نيران العنف والاضطرابات تندلع بألسنة عالية وكانت القوات الفرنسية تشن حرباً حقيقية ـ ولا زالت ـ على سكان الجزائر . . .

وكانت فرنسا قد دخلت شمال أفريقيا فى ١٨٣٠ عندما وفد المارشال بيجو إلى الجزائر ومعه ألفان من الجنود .

وفى عام ١٨٨١ أقام جول فرسى محمية فى تونس .

وفى عام ١٩١٢ بدأ المارشال لوتى فى غزو مراكش .

وبعد ذلك وفد مئات الآلاف من المستعمرين الفرنسيين الذين بدأوا يقيمون الطرق والموانى والسكك الحديدية واهتموا بالصناعة وفصلوا بين الدول العربية الفدرالية وزرعوا الكروم والزيتون .

وقد بلغ عددهم فى عام ١٩٤٥ أكثر من ١,٥٠٠,٠٠٠ ما بين الدار البيضاء وتونس .

وإلى جانبهم أكثر من ٢٠ مليوناً من العرب .

ولكن عصراً جديداً بدأ فى عام ١٩٤٥ على أثر الجيوش المتحالفة .

فقد أمر روزفلت ممثليه المحليين أمثال روبرت مرفى أن يشجعوا زعماء العرب على تحقيق الحكم الذاتى .

وقد حدثت استجابة مباشرة لهذه التعليمات .

وقبل انتهاء العام قام الجزائريون بثورة فى « ستيف » وذبحوا الجالية الفرنسية .

وأراد الفرنسيون توقيع جزاء رادع فصدرت الأوامر إلى القوات السنغالية بإطلاق النار على أى عربى يرونه فى الأربع وعشرين ساعة التالية .

وقد قتل أكثر من ٤٥,٠٠٠ من بينهم نساء وأطفال .

وتكررت مثل هذه الحوادث المؤسفة المرة تلو الأخرى فى الأعوام العشرة التالية ، ولم يكف العرب عن مطالبتهم بالحكم الذاتى ، وأصر الفرنسيون على الرفض فقامت الثورات العنيفة مصحوبة بالمقاومة الوحشية من جانب الفرنسيين .

وقد رأى زعماء العرب المعتدلون — الذين كانوا يؤيدون قيام حكم ثنائى من العرب والفرنسيين — رأوا أن تعنت الفرنسيين وصلابتهم قد قوضت سلطانهم ورأوا أن أتباعهم بدأوا ينحازون إلى المتطرفين العرب .

وبالتدريج سيطرت الأحزاب المتطرفة — وهى حزب الاستقلال فى مراكش وحزب أتباع مصالى الحاج فى الجزائر وحزب الأحرار الدستوريين فى تونس — سيطرت على الحركات القومية .

وقد وافقت الحكومات الفرنسية المتتالية على إجراءات الإصلاح الدستورى وفى كل مرة كان المستوطنون الفرنسيون المحليون بمساعدة بعض الموظفين المدنيين والجيش والبوليس يوقفون مثل هذه الإجراءات ولم يطبق الدستور الجزائرى الذى وافقت عليه الجمعية الوطنية بأغلبية ساحقة عام ١٩٤٦ كما قامت السلطات المحلية بتزوير الانتخابات ، وقد نالت تونس نوعاً من الحكم الذاتى اشتمل على مجلس وزارة يعينه المقيم العام من بين العرب .

وعند ما أخفق هذا الإجراء فى عام ١٩٥٢ حل المقيم العام الحكومة فوراً دون استشارة من باريس ولذلك اضطر وزير الخارجية الفرنسية روبرت شومان إلى الموافقة على هذا العمل بضغط من العناصر الموالية للمقيمين الفرنسيين فى الجمعية الوطنية .

وفى الشهر التالى (أغسطس) تآمر المقيمون الفرنسيون على خلع محمد الخامس السلطان الشرعى ليخلفه سلطان موال لفرنسا هو ابن عرفة ، ومرة أخرى اضطر وزير الخارجية الفرنسية جورج بيدو أن يؤيد الأمر الواقع ، وفى نهاية ١٩٥٣ كانت المناطق العليا من تونس ومراكش فى ثورة مستمرة على حين كانت الجماعات المسلحة المناهضة تسود المدن الكبرى . وكان الوطنيون العرب ناشطين من جهة والفرنسيون — يساعدهم البوليس المحلى — من جهة أخرى ولا يقومون بقتل الوطنيين العرب فحسب ولكنهم كانوا يقتلون الفرنسيين المعتدلين الذين كانوا يؤيدون الوصول إلى تسوية سلمية .

وفى أغسطس ١٩٥٤ قامت الجبهة اليسارية الفرنسية بمحاولة أخيرة للإفلات من حوادث العنف ، وقد طار منديس فرانس — مستغلا الشعبية التى نالها من فرنسا بسبب تمكنه من الوصول إلى حل للحرب الهندية الصينية — طار إلى تونس لإجراء مفاوضات بشأن تحقيق قسط أوفر من الحكم الذاتى . ويبدو أن المحاولة قد نجحت وأجريت المفاوضات فى الخريف لتحقيق وضع شبه مستقل لتونس وأوقف الثوار التونسيون القتال وسيطر على المغرب شىء من الهدوء، وفى أول نوفمبر ١٩٥٤ انفصل الجناح « الثورى » من أتباع مصالى عن الزعماء وقاموا بثورة عنيفة فى جبال (أوريس) فى جنوب شرق الجزائر ، وكان هذا الجناح منظماً ومعداً بالسلاح . وقد قام الجيش الفرنسى بمحاولات تمهيدية غير فاشلة لقمع الثورة . ودام هذا القتال طيلة فصل الشتاء وبدأت الثورة فى الانتشار إلى مناطق أخرى فى الجزائر وتضاءلت الأغلبية التى كان يتمتع بها منديس فرانس فجأة فى الجبهة الوطنية ، وفى بداية شهر فبراير سقطت حكومته .

وقد خلفه إدجار فور السياسى المحترف المحنك ذو الآراء التقدمية ولكنه كان يعتمد على التأييد من الجبهة اليمينية الوسطى . وعلى الرغم من ضغط كتلة «الكولون» المتوطنين الفرنسيين فى الجبهة الوطنية تمكن إدجار فور من إتمام المفاوضات الخاصة بالدستور الجديد لتونس ولكنه اضطر بالنسبة للجزائر أن ينتهج سياسة الضغط والكبت الأعمى ، وتحركت القوات الفرنسية المتزايدة إلى الجزائر . وبعد ذلك تدهور الموقف بشدة فى مراكش . وقد

خفت حدة الكراهية التى كانت لدى المراكشيين ضد ابن عرفة بسبب تحالفه مع الجلاوى الذى كان يسيطر على الجزء الأكبر من جبال أطلس الجنوبية ولكن سلطة الجلاوي كانت قد بدأت تنهار وبدأت الثورة ضد الحكم الفرنسى تمتد إلى أتباعه من رجال القبائل .

وفى أغسطس – أى فى الذكرى الثانية لخلع السلطان الشرعى – قام رجال القبائل بثورة فى الجانب المراكشي من جبال أطلس وكذلك فى الأطراف الشرقية من الجبال الواقعة غرب الجزائر . وقد قتل أكثر من ٢,٠٠٠ من المقيمين الفرنسيين ، وفى اليوم التالى بدأ نشاط الجيش الفرنسي والسلاح الجوى . ودمرت قبائل وقرى بأسرها ولم يعرف على وجه التحديد عدد العرب الذين قتلوا من رجال ونساء وأطفال وإن كان من المقدر أن هذا العدد بلغ حوالى ٦٠,٠٠٠ ، أما الذين استطاعوا الهرب فقد انضموا إلى الثوار فى غرب الجزائر أو إلى منظمة جديدة أقيمت فى الأطلس سميت باسم جيش التحرير المراكشى . وتمردت مراكش نفسها حينذاك وغير الجلاوى موقفه فجأة فى أكتوبر وجدد ولاءه لمحمد الخامس . وكان هذا أمراً حاسماً ، وبعد ذلك مباشرة أبعدت الحكومة الفرنسية ابن عرفة إلى طنجة وأعادت السلطان الشرعى وقبل أن يعود إلى الرباط حصل على موافقة مبدئية أدت إلى أن نالت مراكش وصفاً شبه مستقل ثم طلب حبيب بورقيبة رئيس وزراء تونس امتيازات مماثلة لبلاده وصار من الواضح الجلى أن كلا من مراكش وتونس قد تخلصت من الحكم الفرنسى .

ولكن ما هو الموقف بالنسبة للجزائر ؟ لقد اشتد القتال فى الصيف والخريف وانضم الشباب إلى جماعات الثوار وأعدوا أنفسهم بالأسلحة الفرنسية المستولى عليها وبعض الذخائر من مصر كانت تهرب عبر حدود ليبيا ، وبالتدريج انتشرت المناطق الثائرة ورابط بعضها مع بعض ولكن حتى نهاية ١٩٥٥ كانت لا تزال هناك فرصة للوصول إلى تسوية عن طريق المفاوضة . . . ورفض العرب المعتدلون أن ينضموا إلى الثوار واستنكروا تطرفهم وكان ثمة جزء كبير من المقيمين يعتقدون أنه يمكن الوصول إلى دستور يمنح الجزائريين نصيباً حقيقيا فى حكومة بلادهم وفى الوقت نفسه يضمن مصالح الأغلبية الفرنسية ، وقد صدرت رسائل من المناطق التى كان يحكمها الثوار تفيد أنهم هم الآخرون كانوا مستعدين للوصول إلى حل وسط ، وقد كان هذا أيضاً هو الاتجاه السائد فى فرنسا ، وفى ديسمبر اضطرت حكومة إدجار فور إلى الانهيار وحلت البرلمان فى الحال وفى حملة الانتخابات التى تلت ذلك انضم أتباع منديس فرانس من الراديكاليين فى ائتلاف مع الاشتراكيين الفرنسيين تحت اسم « الجبهة الجمهورية » وخاضوا المعركة الانتخابية على أساس برنامج للمفاوضة بشأن تسوية مسألة الجزائر واستجاب الناخبون الفرنسيون لذلك واكتسب كل من الاشتراكيين والراديكاليين والشيوعيين أصواتاً كثيرة . وخسر أعضاء ائتلاف إدجار فور خسارة كبيرة ؛ وعندما اجتمع البرلمان فى نهاية شهر يناير وجدت الجبهة الجمهورية نفسها تتزعم الأغلبية وتعهدت بإجراء مفاوضات لتسوية مسألة الجزائر .

وبعد ذلك . . . قامت الصعوبة الأولى . . . عمن يكون رئيساً للوزارة ؟ . . .

ووقع الاختيار بالطبع على منديس فرانس فقد كان يتمتع بشعبية كبيرة بين الفرنسيين التقدميين من جميع الأحزاب وكان يؤيد سياسة الإصلاح فى شمال أفريقيا وكان رجلا ذا عزيمة لا تتزعزع ولا تتأثر بالضغط من جانب الكولون (المقيمين) أو الجنرالات ، ولسوء الحظ فإن الحزب الذى كان يقوده كان الشريك الصغير فى هذا الائتلاف وكان المسيو جى موليه سكرتير الحزب الاشتراكى الفرنسى قد وقع عليه الاختيار الأول لرئاسة الوزارة . . . وعلى الرغم من توسلات زملائه فإنه رفض التخلى عنها .

وقد كان هذا أول تعيين لجى موليه فى منصب حكومى . ومنذ ١٩٤٦ كان يشرف على جهاز الحزب الاشتراكى مقيماً سلطته على جمعيتين كبيرتين فى شمال فرنسا مما مكنه من تزعم الأغلبية فى مؤتمرات الحزب . وكان سياسياً محنكاً بوسعه تدبير المؤامرات فى أروقة الجمعية الوطنية ومكاتبها ليقلب الحكومات التى لم تستمر فى الحكم مدة طويلة .

ولكنه كان رجلا هياباً مغروراً ولم يتمتع بسلطة عليا. وكانت الحكومة التى ألفها تتكون أساساً من الذين رشحهم فى الحزب الاشتراكى واثنين أو ثلاثة من الراديكاليين من الجناح الأيمن ، وكان منديس فرانس وزيراً بلا وزارة . وكان الوزير الآخر الذى كانت أفكاره تقدمية إزاء شمال أفريقيا هو ألن سافرى وزير شئون تونس ومراكش .

وكان أول إجراء قام به موليه هو أن طار إلى الجزائر لإجراء المفاوضات بشأن تسوية سلمية . وقبل مغادرة باريس كان قد عين الجنرال كاترو وهو من التقدميين المعروفين حاكماً عاماً للجزائر . ولكن بعد أن وصل إليها بيوم واحد هجم عليه هو وصحبه جماعة من المقيمين يبلغ عددهم ٢٠,٠٠٠ — بينما كان يضع موليه إكليلا من الزهور على نصب الحرب التذكارى فى الجزائر .

وقد كان هذا بالنسبة لموليه تجربة له فيما يتصل بالحكومة من حقائق . وقد شوه البيض المتعفن والطماطم القذرة وجهه وملابسه ونقل وهو يرتعد إلى مكاتب القائد العام بعد أن كاد يفقد وعيه ، وكان أول ما قام به هو أن اتصل تليفونيا بباريس ، وألغى تعيين كاترو وعين بدلا منه روبرت لاكوست المعروف بتأييده للمقيمين (الكولون) ثم عاد بعد ذلك إلى باريس ونسى وعوده فى الانتخابات وتخلى عن المفاوضات ولم يكن أمامه إلا أن يرفع راية الحرب .

وبقى منديس فرانس فى الوزارة لمدة أسابيع قليلة يحاول باستماتة أن يوفق إلى الاتجاه الذى يجر الكوارث على وزارته .

وقدم استقالته فجأة وبعد ذلك سيطر أربعة من الرجال على الحكومة وقد ابتهج جى موليه نفسه بالشعبية الجديدة التى لمسها بين الجبهة اليمينية والوسطى فى الجمعية ، وكان هناك كريستيان بينو الاشتراكى اليمينى الذى كان يكتب قصص الأطفال فى وقت فراغه والذى كان ينغمس فى أحلام اليقظة التى تعود به إلى أيام نابليون .

وكان هناك وزير الدفاع موريس بورجيه مونريه الراديكالى اليمينى وكان الرجل الذى ينوب عن الحكومة فى الاتصال بعناصر المقيمين (الكولون) ، وأخيراً كان هناك مسيو لاكوست الذى استقبل استقبالا رائعاً عند ما وصل إلى الجزائر والذى تعهد فوراً بأن يقمع الثورة بالقوة ولكن كيف له أن يفعل ذلك ؟

فى بداية شهر مارس كان لفرنسا ٢٥٠,٠٠٠ جندى فى شمال إفريقيا ، وكان رئيس هيئة أركان الحرب فى الجزائر يعتقد أن الثورة يمكن قمعها إذا زادت القوات الفرنسية إلى ٤٠٠,٠٠٠ جندى وكانت مثل هذه الاستنتاجات شبيهة بما كان يحدث أثناء الحرب الهندية الصينية ولكن لاكوست لم يشترك فى هذه الحرب ، وقد أرسل تقريره إلى باريس متضمناً تحمسه ووافق المجلس عليه ، وصدرت القوانين لاستدعاء ١٥٠,٠٠٠ من الجنود الاحتياطيين ولتخصيص اعتمادات عسكرية من احتياطى الميزانية ، وفى خلال الربيع أرسلت قوات إضافية إلى الجزائر وقامت معارضة شديدة إزاء ذلك ، فثارت كتائب بأسرها من الاحتياطيين . وثار بعض جنود الاحتياط الذين كانوا على ظهر سفينة عند مارسيليا واختفوا فى الميناء القديم ووقعت حوادث عنيفة فى باريس إلا أن الحشود العسكرية استمرت .

وقد وعد لاكوست مجلس الوزراء بإجراء تحسين كبير فى الموقف العسكرى فى بداية شهر مارس ، وانقضى شهر مايو وقد زادت القيادة العسكرية فى الجزائر من دعاواها بشأن الثوار الذين قتلوا أو أسروا ولكن

المنطقة التى كانت فى أيدى الثوار استمرت فى الاتساع . وفى شهر أبريل وصلت الثورة إلى التلال التى تطل على الجزائر وانتشرت إلى ضواحى العاصمة ؛ وفى شهر مايو اكتسحت جميع المناطق غربى الجزائر وكانت تعمل جنباً إلى جنب مع وحدات جيش التحرير المراكشى فى الأطلسى .

وقد دمر خط السكك الحديدية من قسطنطينة إلى جنوب الجزائر ، وكانت جماعات الثوار المسلحة تضع الكمائن للوحدات الفرنسية ، وكانت القوات المراكشية والجزائرية التى احتشدت لا يمكن الاعتماد عليها ، وكانت فرق بأسرها تقتل الضباط الفرنسيين وتنضم إلى الثوار .

وفى شهر مايو اضطر لاكوست إلى إصدار الأمر بانسحاب جميع الفرق الفرنسية من القتال ، وفى شهر مايو امتد نشاط الثوار — بعد أن زودوا بقيادة فعالة ونظام ممتاز للمخابرات — إلى مزارع المقيمين المنعزلة فى المناطق الزراعية وبدأ المقيمون فى الانسحاب إلى المدن الكبرى وأخذت موجة الاستياء واللوم فى الازدياد .

وما وجه الخطأ فى الموضوع ؟ لماذا أخفقت القوات الفرنسية بكل مالها من معدات حديثة فى أن تسحق ثورة قام بها كما كان يدعى الفرنسيون حفنة من القتلة السفاكين ؟ لقد كانت حقيقة الأمر بسيطة فقد كان العامل الرئيسى الذى يغذى الثورة هو السياسة نفسها ؛ فقد كان الضغط المتوحش يحفز الشعب الجزائرى إلى الوقوف إلى جانب الثوار وإلى تأييد حقوقهم ، ولا يمكن مقارنة سلوك الفرنسيين إزاء هؤلاء الثوار إلا بالأعمال البربرية التى كان يقوم بها الروس فى المجر . وكانت القرى المشتبه فى

أمرها تبيدها الطائرات المقاتلة النفاثة التى كانت تزودها المساعدات الأمريكية بمقتضى دفاع حلف شمال الأطلنطى الموجه ضد روسيا ، كما كانت قاذفات اللهب وقنابل الغازات السامة تستخدم ضد المخابئ التى فى الجبال . وكان المعتقلون يلقون كثيراً من العذاب ، وفى شهر مايو وضع حوالى ٤٠,٠٠٠ من الثوار العرب فى معتقلات شاسعة قذرة خارج الجزائر وطرد الفرنسيون المتحررون واعتقلوا ، كما حكم بالسجن على كثير من المحامين العرب والأطباء والمدرسين ممن لم يشتركوا فى الثورة وأغلقت المدارس وصودرت الصحف وسلمت المستشفيات للمحاربين ، وبتوالى أعمال العنف هذه تسرب عدد أكثر من العرب إلى التلال أو انضموا إلى العصابات الثائرة فى المدن. وقد زاد عدد جيش التحرير فى الجزائر من ٣,٠٠٠ إلى ١٠٠,٠٠٠ فى سنة ١٩٥٦ وبدأ تزويد هذا الجيش بالأسلحة الحديثة، وقد تواردت أنباء قافلات الأسلحة الفرنسية إلى مقر قيادة الثوار الذين وضعوا الكمائن للاستيلاء على هذه الأسلحة الفرنسية، وكانت قوات الاحتياطى الفرنسية التى وفدت للقتال من أجل المقيمين تبيع أسلحتها فى المدن الكبرى ، وقد أقيمت سوق سوداء كبرى فى الحى الوطنى فى الجزائر لبيع الأسلحة، وكان يمكن شراء المدفع الصغير فى شهر يونية بمبلغ ٢٥ جنيهاً إسترلينيا والبندقية بمبلغ عشرة جنيهات. ولم يعوز الثوار المال إذ أنهم كانوا يبتزون الأموال من الجزائريين الموالين لفرنسا والذين كانوا يدفعون بسخاء لإنقاذ حياتهم، وبهذه الأموال استطاعوا شراء مزيد من الأسلحة . وكما حدث فى الهند الصينية فإن الفرنسيين لم يكونوا يسلحون

الطرفين فحسب بل يمولون كلاً منهم كذلك .

ولكن شيئاً من هذا لم يكن من الممكن إبلاغه للجمهور الفرنسى . وكان يتحتم إيجاد « كبش فداء » لتغطية هذا الفشل من جانب الحكومة ، وكان العذر الذى قدمته هو : القاهرة . وفى النصف الأول من عام ١٩٥٦ هرب إلى العاصمة المصرية جميع الزعماء الجزائريين الذين تمكنوا من الهرب من الإعدام أو السجن . وكونوا فى القاهرة « لجنة التحرير الوطنى » ولا شك أن الحكومة المصرية كانت تساعدهم بالمال ، وبالأسلحة إلى حد ما . . . فقد كان قليل من هذه الأسلحة يصل إلى الثوار . وعلى هذا الأساس الواهى قامت الحكومة الفرنسية بحملة كبيرة من الكراهية ضد مصر متركزة فى شخص الرئيس جمال عبد الناصر واشتركت الصحف والإذاعة الفرنسية فى هذه الحملة التى كانت تزعم أن الثورة كان من الممكن أن تخمد لولا المساعدة المصرية .

وذكرت الشائعات المتواردة أن كميات كبيرة من الأسلحة الروسية أرسلت إلى الجزائر عبر الصحراء كما أشيع أن الضباط المصريين والعراقيين كانوا يديرون عمليات الثوار وأن دور مصر فى الجزائر كان شبيهاً بدور الصين الشعبية فى حرب الهند الصينية .

إلى أى حد كانت الحكومة الفرنسية تؤمن بما يجىء فى دعايتها التى قامت بها ؟ من الصعب الإجابة عن هذا السؤال . فلا شك أن الحكومة كانت تقبل وجهة نظر الثوار العسكريين الذين كانوا يعرّضون بمصر ليتستروا على فشلهم . وقد ألقى بينو — وهو أكثر الوزراء الأربعة الكبار

تغفيلا ــ المسئولية على مصر ، وفى وقت مبكر من الصيف زار بينو القاهرة وقال فى الجمعية الوطنية إنه قد حصل على وعد من الرئيس جمال عبد الناصر بأنه سيكف عن مساعدة الجزائريين.. وربما كان من غير المحتمل أن يعرف على وجه التحديد ما دار فى المحادثات بين عبد الناصر وبينو . وليس من المحتمل أن يكون الرئيس عبد الناصر قد أعطى مثل هذا الوعد، ولكن بينو ــ بطريقته المرتبكة ــ اعتقد أن الرئيس عبد الناصر أعطى هذا الوعد . وعند ما مرت أسابيع قليلة بعد ذلك لم يتحسن فيها الموقف العسكرى فى الجزائر استنتج بينو أن الرئيس عبد الناصر قد نقض كلمة الشرف التى كان قد أعطاها . كما أن عبد الناصر جعل منه أضحوكة فى نظر الجمعية الوطنية ، وفى يونية شارك بينو سلوين لويد كراهيته المتزايدة ضد الرئيس المصرى . وفى نفس الوقت أصدر أمره إلى مقر الحكومة الفرنسية بأن تبدأ مفاوضات سرية مع الحكومة الإسرائيلية ، وإلى ذلك الوقت كانت فرنسا مثل بريطانيا ترسل الأسلحة إلى الجانبين فى النزاع العربى الإسرائيلى . ولكن منذ ذلك الوقت انقطعت الإمدادات إلى مصر ، وازدادت الشحنات إلى إسرائيل .

ولم يشارك الوزراء الثلاثة الآخرون بينو فى خيالاته . ولكنهم وافقوا معه على النظر إلى مصر باعتبارها الوسيلة لحل مشكلة الجزائر . وكان موليه يؤيد فتح باب المفاوضات مع الثوار ما دامت التعزيزات العسكرية قد أحدثت تحسناً فى الموقف . ورفض لاكوست ــ ويؤيده بورجيه ــ منورى ــ هذا الاقتراح واعتبره غير واقعى وقال إنه ربما يحدث

تحسن فى نهاية العام ، إن لم يكن قبل ذلك . وفى نفس الوقت كان من الضرورى زعزعة إيمان الجزائريين فى قدرتهم على إخراج الفرنسيين بقوة ، ولايمكن تحقيق ذلك إلا بضرب مصر — ولقد جعل عبد الناصر من نفسه بطلا للعالم العربى ، وفى الشهور الأخيرة أحرز نجاحاً تلو نجاح . فإذا أمكن فضح حقيقة قوته — عن طريق فرنسا — فإن التأثير النفسانى على الجزائريين سيكون حاسما . وفى تلك اللحظة كانت فرنسا تفاوض بسبب ضعفها ، ولكن إذا تحطم عبد الناصر أو قلمت أظفاره فإنها تستطيع التفاوض وهى قوية .

واستمر النقاش فى مجلس الوزراء الفرنسى خلال أشهر مايو ويونيو ويوليو . ونجحت سياسة لاكوست . وبالتدريج أخذ الوزراء الفرنسيون ينظرون إلى عبد الناصر بصفته العدو الحقيقى ، وليس الثوار الجزائريين ، ولكن لم توجد بعد الفرصة المواتية للمعركة الفاصلة ، وكانت الحاجة ماسة إلى هذه المعركة الفاصلة ، ولقد فازت حكومة موليه فى الانتخابات لإقرار السلام لا على استمرار الحرب ، على نطاق أوسع من ذى قبل ، ولكن بالرغم من سيل الرجال والمواد الذى كان ينهمر على شمال أفريقيا ، وبالرغم من البيانات اليومية التى تتضمن « إبادة » جماعات من الثوار ، أخذ الشعب الفرنسى يفطن إلى أن الحرب خاسرة . وفى بداية شهر يوليو قدم پول رامدييه وزير المالية تقريراً إلى مجلس الوزراء ظهر منه أن فرنسا — بعد أربع سنين من الاستقرار المالى — قد أشرفت على موجة جديدة من التضخم ، فإذا زادت أسعار القطاعى بنسبة ٢,٠٪ فإن عمال

الصناعة الفرنسية يكون لهم الحق آلياً حسب اتفاق الأجور ، لرفع أجورهم بنسبة ٥ ٪ ، وعلاوة على ذلك أضاف بأنه إذا استمرت الحرب بالشكل الحالى حتى أكتوبر فلا بد من مراجعة الميزانية وزيادة الضرائب زيادة كبيرة .

وبعد أسبوعين أمم عبد الناصر القناة . وحانت الفرصة ، واعتبر التأميم إهانة لا تغتفر ، واللحظة المرتقبة منذ مدة طويلة للشروع فى حملة التأديب ، وفى اليوم التالى كان بينو يتحدث تليفونيا إلى داوننج ستريت (مقر الحكومة البريطانية) .

الفصل الرابع

الغزو الفاشل

فى يوم الجمعة ٢٧ يولية اتصل السير أنتونى إيدن تليفونيا بمسيو بينو ، ويبدو الآن أن المحادثة قد كشفت عن حقيقة بارزة وهى تصميمهما المشترك على القيام بإجراء عسكرى عاجل وفعال ضد مصر وقررا أنه يجب خلع جمال عبد الناصر وأن الطريقة السريعة العملية الوحيدة لتحقيق ذلك هى استعمال القوة أو التهديد باستعمالها ، وفى هذه المرحلة لم يكن أحدهما قد تمكن من إجراء مشاورات مع وزرائه أو درس الموقف القانونى الناتج عن تأميم القناة أو تشاور مع حلفائه فى حلف الأطلنطى أو مع ممثلى الدول البحرية الأخرى التى لها صالح فى القناة ، كما لم يكن سير أنتونى قد تباحث مع رؤساء وزراء الدول الأعضاء فى الكومنولث ، وفوق كل شىء لم يتسلم أحدهما أية معلومات عن الاحتمالات العسكرية للهجوم المسلح على مصر ، وبالرغم من كل ذلك فقد اتفق الاثنان على القيام بإجراء ما ، وفى نفس المساء أخطر وزيرا الدفاع فى لندن وباريس للاستعداد وكانت هذه المحادثة التليفونية نموذجاً للقرارات الطائشة المتهورة التى لم تكن تستند إلى معلومات صحيحة والتى كانت طابع الحكومتين طوال مدة الأزمة .

فى اليوم التالى زال الوهم الذى كان يسيطر على عقليهما . فنى باريس تسلم موليه وبينو تقريراً من وزير الدفاع أوضح فيه حالة عدم الاستعداد الخطيرة . لقد كان جزء من الأسطول الفرنسى للبحر المتوسط موجوداً فى ميناء طولون وكان فى إمكانه أن يستعد للرحيل فى ظرف ٤٨ ساعة ، ولكن حاملة الطائرات التابعة له كانت مزودة بـ ٢٥ طائرة جديدة فقط كان بوسعها أن تحارب على قدم المساواة تقريباً ضد طائرات ناصر من طراز ميج ١٥ س وميج ١٧ س ، ولم يكن فى استطاعة الأسطول أن يصل إلى شرق البحر المتوسط فى أقل من أسبوع ، وكان يوجد فى ألمانيا ثلاثة أسراب من المقاتلات النفاثة البعيدة المدى من طراز ميستير ولكن عملية نقلها هى ومعداتها إلى البحر الأبيض المتوسط كانت ستستغرق عشرة أيام أو أكثر ، وعلى أى حال فإن هذه كانت ستصبح لا فائدة منها إذا وضعت فى قاعدة فى الجزائر ، وكانت قبرص هى أبعد نقطة يمكن استخدامها كقاعدة لعملياتهما . وجميع طائرات فرنسا النفاثة الأخرى كانت قصيرة المدى بحيث لا تستطيع القيام بأية عملية حتى من قبرص ، أما عن القوات البرية فقد كانت لفرنسا ثلاث كتائب مشاة فى الثكنات فى منطقة الجزائر وكتيبتان أخريان فى ساحل فرنسا الجنوبى ، ولكن لم تكن لديها سفن « إنزال الجنود » من أى نوع . وكان لها لواءان من جنود المظلات يعملان فى الجزائر ولكنهما لم يقوما بأية تدريبات منذ أكثر من سنة وكانا يحتاجان لأسبوعين على الأقل للتمرين ، وكان فى الإمكان إيجاد طائرات لنقل الجنود ولكن هذا كان سيستغرق بعض الوقت . واتضح فى

الصباح أن فرنسا بمفردها لم تكن قادرة من الناحية المادية على استعمال القوة ضد جمال عبد الناصر .

وكانت الأنباء فى لندن أسوأ فكما أظهرت صحيفة النيوزكرونيكل فى مقال لها نشر فى ٣١ أكتوبر « أنه كان لدينا ثلاث كتائب من جنود المظلات فى قبرص ولكنهم لم يقوموا بأية تدريبات منذ شهور ، وبما أن معدات التدريب لم تكن موجودة فى قبرص فى ذلك الوقت فكان على القوات أن تنتقل بطريق الجو إلى بريطانيا لتدريبها من جديد ، كما كان لنا ثمانى كتائب مشاة فى قبرص ولكن لم يكن لدينا أية سفينة من سفن إنزال الجنود ، وأقرب منطقة كانت لنا فيها مدفعية معاونة هى ألمانيا ، وصحيح أن جزءاً من الفرقة العاشرة المدرعة كان موجوداً فى ليبيا ولكن لم يكن لديها دبابات لنقل الجنود ولم يكن فى استطاعة كتائب المشاة المبعثرة فى عدن وشرق أفريقيا التحرك أيضاً . ولم يكن لدينا أية طائرات نفاثة حديثة بعيدة المدى فى أى مكان فى منطقتى الشرق الأوسط والبحر المتوسط ما عدا سربين عاملين من قاذفات القنابل من طراز كانبيرا كلاهما فى مطارات فى قواعد جوية فى البلاد العربية مما يمنع استعمالها فى عمليات ضد مصر ، وكان أسطول البحر المتوسط موجوداً ولكن حاملات الطائرات فيه كانت مزودة بطائرات لا تصلح للعمليات ووسائل نقل الجيش ، وخبراء الموانئ وهم ذوو أهمية كبرى لأى عملية إنزال تقوم بها السفن من البحر ، كانوا مبعثرين فى جميع بلاد الكومنولث البريطانى ، وفوق كل شيء فالعامل الحاسم كان سفن إنزال الدبابات ، وبينت التقديرات أن

القوة القادرة على تنفيذ عملية الإنزال فى منطقة القناة وعلى الدفاع عن نفسها ضد هجمات القوات المصرية إنما تحتاج إلى سبعين سفينة من هذه السفن وكان لدينا سفينتان فحسب إذ أن بقية السفن كانت بيعت أو حطمت أو أصبحت غير صالحة للعمل .

وفى نهاية الأسبوع أصبح من الواضح أن عملية الغزو قد ألغيت — أو أجلت . ولكن تصميم سير أنتونى وحلفائه الفرنسيين لم يتزعزع ، وصدرت الأوامر فى العاصمتين بوضع خطط فى الحال للتعبئة العامة الطارئة بما فى ذلك استدعاء قوات الاحتياطى وتجهيز معدات الاحتياطى لتصبح صالحة للعمل ، وأثناء ذلك كان يجب كسب الوقت وكان يجب إخفاء الاستعدادات العسكرية وراء ستار من المفاوضات ، وماذا كان فى استطاعة الإمكانيات الدبلوماسية أن تحققه ؟

من وجهة النظر القانونية البحتة كانت الصورة كئيبة ، فى لندن أظهرت المشاورات القانونية العاجلة أن فرصة الحكومة البريطانية ، وهى أكبر مساهمة فى شركة قناة السويس البحرية العالمية ، فى الحصول على حكم ينفى قرار التأميم من محكمة العدل الدولية أقل من الفرصة التى كانت لديها فى قضية تكرير البترول فى عبدان ؛ فإن الشركة الإنجليزية الإيرانية للبترول التى كانت تملك عبدان كان لها صفة دولية معترف بها ، وزيادة على ذلك فإن اتفاق الامتياز بينها وبين الحكومة الإيرانية كان يشتمل على فقرة خاصة تحرم التأميم وبالرغم من ذلك فقد رفضت محكمة العدل الدولية الدعوى البريطانية وأعلنت أنه ليس من اختصاصها الحكم فى

القضية ، وكانت شركة القناة قد سجلت فى مصر وهى خاضعة للقانون المصرى وكان عقد امتيازها سينتهى فى سنة ١٩٦٨ ، وبذلك كانت القناة ستئول إلى مصر آ ليًّا على شرط أن تدفع التعويضات ، وكان من حق مصر كدولة ذات سيادة أن تلغى عقد الامتياز قبل تاريخ انتهائه ومن الممكن تحديد التعويضات فى محكمة العدل الدولية وإذا لم تدفع مصر التعويضات يمكن تنفيذ العقوبات التى تفرضها المحكمة وإلى أن يحدث ذلك فلم يكن لدينا قضية قانونية .

هل نقضت مصر أية معاهدات ؟ لم يبد أنها فعلت ذلك . وفى اتفاقية قنال السويس التى أبرمت عام ١٩٥٤ والتى أنهت احتلال بريطانيا للمنطقة كانت مصر قد وافقت على التمسك ببعض نصوص اتفاقية عام ١٨٨٨ التى تضمن أن تكون القناة مفتوحة لسفن جميع الدول فى وقت السلم والحرب ، ولكن لم يكن لهذا أية علاقة بمسألة ملكية القناة ، فاتفاقية عام ١٨٨٨ فرقت بطريقة واضحة بين ملكية القناة وبين إعاقة الملاحة ، إن الالتزامات الناتجة عن هذه المعاهدة يجب ألا تتقيد بمدة الامتياز لشركة قناة السويس العالمية وبعبارة أخرى فإن تغيير الملكية لا يكون خرقاً للاتفاقية على شرط أن يحتفظ بحرية الملاحة . صحيح أن مصر سبق أن خرقت الاتفاقية بمنع السفن الإسرائيلية من المرور فى القناة ، ولكن حدث هذا فى الوقت الذى كانت فيه الشركة السابقة تدير القناة مما يثبت سخف الادعاء بأن ملكية مصر للقناة فى حد ذاته يهدد الاتفاقية ، فقد كانت مصر فى موقف يمكنها من خرق الاتفاقية إذا أرادت ذلك

بصرف النظر عما إذا كانت تدير القناة أو لا ، وزيادة على ذلك فلم يتعد الأمر عرضنا للقضية أمام مجلس الأمن فقد تجاوزنا عن نقض مصر للاتفاقية ، ومن المؤكد أننا لم نتخذ أية خطوات فعالة لنمنع تكرار ذلك (منع مصر لسفن إسرائيل من المرور) حتى فى الوقت الذى كان فى إمكاننا أن نفعل وذلك عند ما كانت قواتنا موجودة فى منطقة القناة ، وموقفنا فى الاتفاقية كان دائماً موقفاً معادياً ففى بادئ الأمر كانت الاتفاقية موجهة ضد بريطانيا وقد رفضنا التوقيع على جميع نصوص الاتفاقية حتى فى سنة ١٩٠٥ حين استسلمنا للضغط الفرنسى ووقعنا عليها ، ولا شك أننا انتهكنا الاتفاقية فى كلتا الحربين العالميتين عند ما منعنا سفن الأعداء من المرور من القناة ، كما أننا رفضنا بشدة مرتين اقتراحات بتدويل القناة .

وعلى أية حال فلم يكن فى استطاعتنا الالتجاء إلى الاتفاقية إلا إذا انتهكتها مصر . ولم تظهر مصر أية بوادر للإقدام على ذلك ، بل بالعكس فإن ناصر قد أعلن أنه سيلتزم بنص الاتفاقية وأنه لا ينوى زيادة الرسوم قبل إجراء مشاورات مع شركات الملاحة التى يخصها الأمر ، ومن الممكن طبعاً أن يقال : إن عجز مصر المزعوم عن المحافظة على إدارة القناة بطريقة فعالة سيكون بمرور الوقت خرقاً واقعيا للاتفاقية ولكن مرة أخرى لم يكن فى استطاعتنا أن نتخذ أى إجراء حتى يحدث ذلك بالفعل .

هل كان فى إمكاننا اتخاذ أية خطوات أخرى؟ إن عبد الناصر باستيلائه

على القناة قبل إجراء مشاورات ، وبوضعه حرساً مسلحاً حول ممتلكات الشركة ، قام بدون شك بعمل غير ودى ، بل قد يقول البعض إنه قام بعمل عدائى . ولذلك كان لنا بعض الحق فى أن نرد على ذلك بفرض العقوبات الاقتصادية . وكان أول من قدم هذه الفكرة هو هيوجيتسكل زعيم المعارضة وذلك بعد استيلاء مصر على القناة مباشرة ، وقد قبل سير أنتونى إيدن الاقتراح الذى جاء من جانب المعارضة ، ولكن بعد تدقيق النظر لم تكن العقوبات وسيلة فعالة للرد على مصر فقد تم تجميد أرصدة مصر من الإسترلينى والتى تبلغ ١٢٠ مليون جنيه إسترلينى فى الحال ولكن موعد دفع الحصة التالية لمصر من الإسترلينى كان فى ديسمبر ، وجمدت الحكومة أيضاً جميع الحسابات المصرية التجارية والخاصة فى بريطانيا ولكن هذه كانت خطوة خطيرة للغاية وقد تلحق ضرراً لا يعوض بثقة العالم فى بريطانيا بوصفها بنكاً مركزياً ، كما أثر هذا الإجراء على بريطانيا بنفس الدرجة التى أثر فيها على مصر إذ كان من نتيجته أن توقفت صادراتنا من الآلات . . . والبضائع المصنوعة إلى القاهرة ، وبدون شك فإن الطبقة البورجوازية فى مصر ستشعر بالضيق نتيجة لذلك ولكن لن يشعر بها جماهير الفلاحين المصريين الذين ترتكز عليهم قوة ناصر ، ولن يتأثر بها الاقتصاد المصرى على العموم فى المدى القصير مباشرة ، وكل هذه الخطوات بالإضافة إلى الخطوات المماثلة فى باريس لن تجمد سوى ثلث احتياطى مصر من النقد ، وقد يسبب هذا بعض الارتباك فى تجارة مصر الحالية ولكنه لن يعزلها عن الأسواق العالمية ، ففى ال ١٨ شهراً الماضية نقص

احتياطى مصر بنسبة ٢٥٪ ولكنها كانت تحتفظ فى آخر إحصاء بما قيمته ٨٦ مليون جنيه من الذهب والدولارات التى لم يكن فى استطاعتنا المساس بها حتى إذا تعاونت معنا أمريكا ، وباستعمال أرقام سنة ١٩٥٤ كأساس تقريبي للحساب فإن مصر تستطيع الاستمرار لسنتين أخريين حتى بدون معونة من الكتلة الشيوعية .

وبقى بعد هذا أمامنا الدبلوماسية فقط — حشد الرأى العام العالمى لإجبار مصر على الامتثال أو لتمهيد الموقف للتدخل المسلح ولكن الرأى العام العالمى كان منقسماً ، فالكتلة الشيوعية ودول آسيا الحرة قد قبلت على صور مختلفة قانونية إجراء ناصر فى حين انتقد الرأى العام الأوربى الإجراء وخصوصاً الطريقة التى نفذ بها ناصر الإجراء ولكن الرأى الأوربى كان يرى أنه فى الإمكان الوصول إلى الحل عن طريق الوسائل الدبلوماسية ، وهولندا التى خسرت ٢٠٠ مليون جنيه كنتيجة مباشرة للتأميم لعلها كانت مستعدة لتأييد اتخاذ إجراء أقوى ولكن الدولة بأسرها كانت تسودها الضجة بخصوص النزاع العلنى بين الملكة جوليانا وزوجها ، وهكذا لم تكن الحكومة الهولندية فى موقف يسمح لها باتخاذ قرارات مثيرة ، أما أمريكا وهى التى سببت المسألة بأسرها فكانت مشغولة بحملة انتخاب الرئيس . فقيل إن سير أنتونى إيدن قد وجد بعض الصعوبة فى إيجاد أى مسئول أمريكى ليتحدث معه فى التليفون ، وفى مؤتمر أيزنهاور الصحفى الأول بعد التأميم انتظر المراسلون البريطانيون والفرنسيون مدة ساعة فى الوقت الذى كان فيه الرئيس يجيب عن أسئلة بشأن حملته الانتخابية قبل أن يتحدث

قليلا عن السويس .

ومن المحتمل أنه بعد ثلاثة أيام استغرقت فى محاولة لكسب الرأى العام العالمى لتأييد التدخل المسلح كان سير أنتونى إيدن قد تخلى عن الخطة بأسرها فى يأس ولكن شيئاً واحداً شجعه على المضى فى خطته هو الإجماع الظاهر فى داخل بريطانيا البادى فى رد الفعل الأول فى الصحافة بعد تأميم قناة السويس ، فقد أظهر عداء متأصلا نحو مصر وكانت أكثر الصحف تحمساً لاتخاذ إجراء قوى هى الديلى إكسبريس والديلى ميل والديلى تلجراف ـ وبدا أن هذه تمثل جزءاً كبيراً من الرأى العام ، وحتى جريدة « التايمز » وهى متحفظة فى العادة ، وقد وأيدت الانسحاب من السويس سنة ١٩٥٤ ، طالبت بشدة أن تتخذ بريطانيا إجراء قويا ، وفى الأيام الأولى القليلة بدا أن جزءاً كبيراً من المعارضة يشارك فى هذا الشعور وخصوصاً زعماء المعارضة فقد رأينا أن مستر جيتسكل هو أول من اقترح فرض عقوبات اقتصادية ضد مصر .

وهكذا نصل إلى مناقشة مجلس العموم فى أغسطس وكانت هذه هى أول فرصة أتيحت لمجلس العموم لبحث أزمة السويس ، وكان على أسس هذه المناقشة أن اعتقد إيدن ـ وكان خاطئاً فى اعتقاده كما برهنت الحوادث ـ أن الغالبية العظمى فى الأمة ستؤيده فى اتخاذ إجراء عسكرى ضد مصر ، وبعد الظهر بفترة قصيرة وقف إيدن فى مجلس مزدحم مضطرب ليخطب وقال : إنه يأسف إذ لم يمكنه بعد أن يعلن عن نيات الحكومة . وكان مستر دالاس قد وصل إلى لندن فى اليوم السابق لذلك ، وكانت

المحادثات معه ومع مسيو بينو ما زالت دائرة،وفى هذا الوقت ذكر إيدن مجلس العموم بالتهديد الخطير للاقتصاد البريطانى الذى يمثله الاستيلاء على قناة السويس ووصف عمل عبد الناصر بأنه إجراء تعسفى فى انتهاك المعاهدات والعقود الدولية ، وقال إننا نرى الآن نوع العمل الذى علينا أن نتعامل بمقتضاه ونظراً إلى ذلك فقد قررنا اتخاذ إجراءات عسكرية معينة ذات صبغة وقائية من ضمنها استدعاء بعض قوات الاحتياطى وتحركات بعض الفرق إلى البحر المتوسط .

وبالرغم مما تضمنه خطابه من تهديد فمن المؤكد أنه كان متحفزاً أكثر من خطاب جيتسكل الذى تبعه،ويجب أن نقول على الفور إن مستر جيتسكل كان فى موقف حرج فلقد كان دائماً اقتصاديا ولم يكن خبيراً بالشئون الخارجية وكان يميل إلى رؤية أزمة السويس من وجهة نظر الرجل الاقتصادى،وهكذا انتابه الجزع ، وفى الشهور الأخيرة ألقى جيتسكل خطبة بخصوص الشرق الأوسط بعد إرشاد دقيق من زميله مستر ر. ه . ش كروسمان الذى لعله كان ملماً بمسائل الشرق الأوسط أكثر من أى عضو آخر فى مجلس العموم، ولكن لسوء الحظ لم يكن مستر كروسمان موجوداً فى أغسطس — وكان على مستر جيتسكل أن يعتمد على مستر ألفريد روبنز وكانت النتيجة مفجعة . . صحيح أن مستر جيتسكل ختم خطابه بالاقتراح بعرض المسألة على الأمم المتحدة والإصرار على أن أى إجراء نتخذه — ولم يستوعب احتمال استعمالنا للقوة — يجب أن يكون متلائماً مع التزاماتنا بموجب ميثاق الأمم المتحدة ولكن بدا وكأن

هذه كانت فكرة طارئة تبعث استعراض الموقف فى الشرق الأوسط وقال إن تأميم القناة كان جزءاً من الصراع للسيطرة على الشرق الأوسط، وكان طابع الحوادث مألوفاً فهو نفس الذى جابهناه من جانب موسولينى وهتلر فى سنوات ما قبل الحرب العالمية الثانية، وقال : إذا فشلنا فى أن نثبت حقوقنا فإن أصدقاءنا الباقين فى الشرق الأوسط سيهجروننا وسنخسر بترولنا . وكانت لهجة خطبته بالذات — وليست إشاراته إلى ميثاق الأمم المتحدة — هى التى أثرت على مجلس العموم . كانت لهجته عدوانية ولكن كان فى الطريق ما هو أسوأ من ذلك . وبعد عدد من الخطب من ضمنها خطبة الكابتن ووترهاوس — زعيم جماعة السويس الذى هنأ فيها مستر جيتسكل على خطبته الجريئة للغاية — وقف مستر موريسون ليتحدث وكان مستر موريسون وزيراً لخارجية بريطانيا فى حكومة العمال فى وقت وقوع مشكلة عبدان وقد اشتد النقد الموجه ضد معالجته للأزمة منذ ذلك الوقت، فقد كانت خطبته هجوماً عنيفاً على عبد الناصر « ذلك الدكتاتور المصرى » — وبدا أن خطبته كانت تشجيعاً للحكومة على استعمال القوة بتأييد أمريكا والأمم المتحدة إذا أمكن ولكن بدون تاييدهما إذا دعا الأمر . وقد قابل نواب الحكومة خطبته بالهتاف — حتى ولو لم يفعل كل نواب المعارضة ذلك — وقد عبر مستر سلوين لويد الذى تبعه فى الحديث عن إعجابه بالشعور الذى أبداه مستر موريسون .

وصحيح أن بعض نواب حزب العمال وخصوصاً مستر " Warbey " وورى تفوهوا ببعض عبارات التحذير، وآخرون مثل بربارا كاسل كانوا

ينوون مهاجمة مبدأ « الاحتياطات العسكرية » بأسره ولكن لم يتح لهم رئيس المجلس فرصة إلقاء خطبهم ، ولكن بوجه عام لا يمكن للحكومة أن تلام على افتراضها أن أغلبية حزب العمال تؤيد تهديدها لاستعمال القوة . وفى نهاية الأسبوع انتهت الدورة البرلمانية وانتشر الأعضاء فى جميع أنحاء الدولة بل فى جميع أنحاء العالم ، وهكذا حرم سير أنتونى إيدن بعد ذلك المعبر عن شعور الشعب الذى يمثله مجلس العموم بالرغم من جميع نقائصه .

وفى هذه الأثناء قام مستر إيدن ومستر سلوين لويد بالاشتراك مع الفرنسيين بالاستعداد لسثارهم الدبلوماسى – وفى نهاية أول أسبوع فى أغسطس أصبح واضحاً أنهم لا يستطيعون الاعتماد إلا على تأييد فاتر من جانب الولايات المتحدة – وفى اليوم الذى تبع التأميم اتصل سير أنتونى إيدن بوزارة الخارجية الأمريكية تليفونيا وطلب حضور دالاس إلى لندن فوراً لإجراء مباحثات بين أمريكا وبريطانيا وفرنسا . ورفض مستر دالاس . لقد كان مشغولا جدا . وبدلا من ذلك بعث بمستر مورفى وهو مسئول يشغل منصباً صغيراً نسبيا ويناصر العرب . وفى أثناء المحادثات العاجلة التى أجريت فى نهاية الأسبوع والتى تبعتها أصبح من الواضح أنه لم يكن لدى مستر مورفى أية تعليمات معينة كما لم تكن لديه السلطة لاتخاذ قرارات ؛ وفى يوم الاثنين ازداد الضغط البريطانى الفرنسى على واشنطن وقبل دالاس على مضض أن يحضر بنفسه إلى لندن .

ولكن حضوره لم يساعد على سير الأمور وبصفة كونه محاميا تجاريا

فقد نظر إلى تأميم عبد الناصر للقناة على أنه « إجراء خاطئ » من الناحية التجارية . ولذلك فيمكن مجابهة هذا الإجراء بفرض عقوبات تجارية — ولمح إلى أن أمريكا مستعدة لاتخاذ إجراءات مماثلة لما اتخذته كل من بريطانيا وفرنسا فى تجميد الأرصدة المصرية — كما اعتقد أن السفن الأمريكية يجب ألا تدفع رسوم القناة إلى إدارة ناصر ولو أنه سارع بالإضافة بأنه ليس فى استطاعته أن يصدر تعليمات بهذا الصدد وقال : وعلى أية حال فلا يبدو أن ناصر يصر على دفع الرسوم لمصر فى الوقت الحاضر على الأقل .

وبصفة عامة فقد أعطى دالاس لإيدن وبينو شعوراً بالاضطراب كعدم الاستقرار على رأى ولكن موقفه بدا واضحاً فى مسألة واحدة ، فقد أبدى رأيه بأنه يجب عدم عرض النزاع على الأمم المتحدة فى هذه المرحلة ، فإعطاء العضوية لعدد آخر من الدول قد زاد عدد الأعضاء فى الأمم المتحد إلى ٧٦ وقد أثر ذلك على الأغلبية القديمة التى كانت تتمتع بها دول الأطلنطى والتى كانت تسيطر على الجمعية العامة منذ الحرب ، وكان هذا سيصير واضحاً إن عاجلا أو آجلا ولكن كان من المهم ألا يتضح ذلك لأول مرة فى مثل هذا الموضوع الذى تضمن مصالح الدول الغربية الكبرى وفى نفس الوقت كان يجب تهيئة الرأى العام ضد ناصر — ثم يتنازل ناصر بعد ذلك — ولذلك فقد كان من الأفضل بكثير دعوة الدول التى تستخدم القناة ، أو التى تعتمد عليها اقتصاديا ، إلى مؤتمر يعقد فى لندن مما سيعطى بريطانيا وفرنسا ما يمكن تسميته « تعويضاً بالأغلبية » فى مفاوضاتهم مع

جمالى عبد الناصر .

وكانت هى من وجهة نظر دالاس طريقة حكيمة للنقاش ولكنه يعتقد أنه يمكن تسوية النزاع عن طريق المفاوضات وعن طريق الضغط الدبلوماسي والاقتصادى ، ولم تقره كل من بريطانيا وفرنسا على ذلك فقد سبق أن صممتا على إسقاط ناصر — وكانتا تشعران أنه يمكن تحقيق ذلك إذا أرغم ناصر على التسليم بشأن مشكلة القناة . ولهذا السبب كان يجب أن تكون الشروط التى تقدم له غير مقبولة لديه .

والاستفسارات فى القاهرة قد أظهرت أن ناصر سوف لا يقبل تحت أى ظروف — ومن بينها استخدام القوة — أى حل يضع إدارة القناة فى أيدى هيئة دولية ، وقد كان هذا هو الحل الذى نادى به . وقد حبذ مستر دالاس أيضاً فكرة الإدارة الدولية للقناة ولكن بالنسبة له فقد كان هذا بمثابة أساس للمفاوضات ونقطة بدء لإجراء مناقشات مطولة . أما بالنسبة لبريطانيا وفرنسا فقد كان أقل مطلب لهما وكان يجب على مصر إما أن تقبله أو ترفضه بل كان بمثابة عرض نهائى لمصر .

وهكذا وبالرغم من أن بريطانيا وفرنسا اتفقتا مع خطة دالاس بعقد مؤتمر للمنتفعين بالقناة فإن وجهة نظرهما عن الغرض من المؤتمر كانت تختلف تماماً ، وكان الهدف من المؤتمر بالنسبة لدالاس هو تقوية موقف الحلفاء فى المفاوضات أما بالنسبة لبريطانيا وفرنسا فكان المؤتمر بمثابة وسيلة للحصول على موافقة عامة على خطة بريطانية فرنسية وهى الخطة التى إذا رفضتها مصر — وكانوا يعتقدون أن مصر سترفضها — ستقوم بريطانيا وفرنسا

بتدخل مسلح حتى تمتثل مصر لقرارهما . كما كان عقد المؤتمر فى نظرهما وسيلة ملائمة لكسب الوقت للاستعداد للقيام بهذا التدخل ، وفى نهاية أول أسبوع فى أغسطس أصبح واضحاً بصورة قاطعة ومؤلمة أنه لا يمكن إعداد حملة بريطانية فرنسية بقوة كافية تجعلها فعالة قبل نهاية أول أسبوع فى سبتمبر ، ولم يكن فى استطاعة المؤتمر أن يعقد قبل منتصف شهر أغسطس ، وكان من المنتظر أن يستغرق بضعة أيام أو أكثر وعند ما يتم إعداد مطالبه وتقديمها لناصر ورفض الأخير لها سينتهى شهر أغسطس وأنه سترفع بريطانيا وفرنسا الموضوع إلى مجلس الأمن حيث ستستعمل روسيا الفيتو ، ثم كانا يستطيعان بعد ذلك أن يدعيا أنهما قد فعلا كل ما فى وسعهما للعمل داخل نطاق الأمم المتحدة وبأنهما قد منعا من ذلك نتيجة إجراءات روسيا التخريبية وبأن الطريق الوحيد أمامهما أن يتخذا الإجراءات بنفسهما وعند حلول ذلك الوقت ستصبح قواتهما مستعدة للقيام بالحملة .

وبالرغم من اختلاف دوافعهم فقد وجهت الدول الغربية الثلاث متحدة الدعوة إلى الدول المستعملة للقناة لحضور مؤتمر عالمى وقد اختير الضيوف بدقة بحيث يكون هناك أغلبية كبيرة لخطة الدول الثلاثة الكبار وطبعاً لم يكن فى الإمكان استبعاد روسيا ومصر ولكن جميع الدول الأخرى التى دعيت كانت إما من دول حلف الأطلنطى أو دول الشرق الأوسط المؤيدة للغرب أو من دول الكومنولث أو من الدول التى تعتمد اقتصاديا على الغرب مثل اليابان وإسبانيا وأثيوبيا .

وفى هذه الأثناء كان يجب تعبئة الرأى العام . وفى فرنسا لم تكن

هناك حاجة لتعبئة الرأى العام فى خطبة موليه التى ألقاها فى الجمعية الوطنية بعد تأميم مصر للقناة بأسبوع عند ما وصف موليه عبد الناصر بأنه هتلر يجب القضاء عليه هتفت له جميع الأحزاب فى البرلمان ما عدا الشيوعيين ، فى خلال الستةشهور التى مضت وبازدياد حدة القتال فى الجزائر التف الرأى العام حول الحكومة وكانت الكراهية ضد العرب تنتشر فى جميع طبقات الشعب كما حدثت مظاهرات عنصرية فى كثير من المدن الفرنسية .

ولكن الأحوال فى بريطانيا تختلف عن ذلك وفى الواقع أن الاختلافات العميقة فى الآراء بدأت فى الظهور فى الوقت الذى انتهت فيه دورة البرلمان ، فإن جماعة من الجناح اليسارى من أعضاء حزب العمال فى البرلمان قد كونت لجنة طارئة للسويس تنوى تعبئة الرأى العام ضد الهجوم على مصر وقد هوجم جيتسكل بسبب موقفه من جانب أعضاء حزب العمال فى جميع أنحاءالبلاد ومن جانب صحف مثل صحيفة التربيون والنيوستيتسمان ، ولم يكن الحزب اليسارى وحده هو الذى يشعر بالقلق فى الوقت الذى استنكرت صحيفة الأوبزرفر استخدام القوة كانت هذه الصحيفة تعتقد أن الحكومة لا تنوى استخدامها ولكن لم تبد بعض الصحف الأخرى مثل هذا التفاؤل فقد حذرت صحيفة المانشستر جارديان قراءها بعبارات قوية للغاية أن استعمال القوة سيجلب كارثة كما أكدت جريدة الإيكونوميست أن الدعوى البريطانية الفرنسية تستند إلى أساس قانونى ضعيف والتمست من الحكومة أن تشرع فى المفاوضات بطريقة واقعية ، ولكن أغلبية الصحف كانت تؤيد

الحكومة، فصحيفة التايمز التى كان لها فى هذه المرحلة نفوذ على الحكومة أكبر من أى صحيفة أخرى أصرت على أن تتبع سياسة الحزم، ففى الصباح التالى لمناقشة ٢ أغسطس كان عنوان مقالها الافتتاحى «مقاومة المعتدى» ولحت بوضع قدمنا داخل الباب، وعلى أى حال فقد كانت الحكومة تورط نفسها بسرعة فى الإذاعات بالراديو والتليفزيون هاجم السير أنتونى إيدن والمستر سلوين لويد الرئيس ناصر هجوماً شخصيا فقد وضفاه بعبارات جعلت من الواضح تماماً أنه ليس فى نيتهما التفاوض معه، بل ما هو أهم، فقبل انتهاء دورة البرلمان تحدث مستر سلوين لويد مع النواب المحافظين فى اجتماع سرى للجنة الشئون الخارجية لحزب المحافظين ولعلنا سوف لا نعلم أبداً ماذا قال لهم على وجه التحديد ولكن لا يوجد شك فى أنه تعهد بأن تقوم الحكومة بمحاولة تدويل القناة بأى ثمن، وهتف له النواب المحافظون ورجعوا إلى مراكز دوائرهم الانتخابية وهم على رضاء تام، وبعد ذلك الاجتماع لم يكن فى استطاعة الحكومة أن تتراجع حتى لو أرادت ذلك بدون تهديد مستقبلها وهكذا تم اتخاذ القرار وكانت الخطوة التالية هى إعداد ستار من الدخان .

الفصل الخامس

ستار من دخان الدبلوماسية

كانت وزارة الخارجية البريطانية خلال أيام شهر أغسطس الرطبة الباردة — فقد كان ذلك الصيف هو أعنف صيف عرفته إنجلترا منذ عدة سنوات — تعمل دائبة جاهدة لتحصل على التأييد العالمي للموقف الأنجلو — فرنسي .

ولقد بذلت وزارة الخارجية كل ما فى وسعها من جهة والتجأت إلى كل صنوف الضغط والتهديد لكى تجمع صفوف دول الدومنيون وراءها .

وجاء فى تقرير مبدئى للموقف أن أستراليا ونيوزيلندة وحدهما هما اللتان يحتمل وقوفهما إلى جانبنا إذا ما اتخذنا إجراء عسكرياً ضد مصر ، بل إن هاتين الدولتين من دول الدومنيون كانت تثار حولهما الشكوك أيضاً .

أما باقى الدول فقد كانت تبدو مرتابة مترددة ، كانت الهند وسيلان بصفة خاصة من الدول التى نددت جهاراً بموقف بريطانيا الداعى إلى الحرب .

هذا فى الوقت الذى رفضت فيه الدول الأوربية مثل النرويج وإيطاليا مجرد النظر فى احتمال اشتراكهما فى حملة مسلحة .

ولقد قبلت جميع الدول الثلاث والعشرين التى دعيت إلى الاجتماع

– فيما عدا مصر – الدعوة ولكن الكثير من مندوبى هذه الدول حضروا الاجتماع فى لندن وكانت الشكوك تراودهم والقلق يداخلهم .

وكان من الواضح أن معظم هذه الدول لما لها من مصالح اقتصادية كبيرة فى القناة حريصة على أن تدار القناة إدارة صحيحة .

وكان مما لا شك فيه أن هذه الدول شاركت سلوين لويد أسفه فى أن هناك احتمالا إلى أن يتخذ هذا الممر المائى الحيوى أداة طيعة لما سماه « الدوافع المتقلبة لدكتاتور واحد» .

ولكن هذه الدول كانت سترتضى فيما يبدو ضمانات ثابتة تحصل عليها من مصر وتصدق عليها الأمم المتحدة .

ولم يكن أى من هذه الدول ترحب باستخدام القوة الأمر الذى قد يضر – بغض النظر عن الاعتبارات الأخرى – بالقناة نفسها ، كما أن الكثير من هذه الدول اعترض على الطريقة التى رسمت لهم لكى يؤيدوا ما اعتبروه استعماراً أنجلو – فرنسياً .

وما إن حان موعد انعقاد المؤتمر حتى كانت المشاعر الدبلوماسية المهتاجة قد ذوت وضؤلت .

أما فى القاهرة فقد بقى ناصر هادئاً واثقاً من نفسه .

ولما كان يعلم أن أى اعتداء يقع على حياة الرعايا البريطانيين أو ممتلكاتهم قد تسارع بريطانيا إلى اتخاذه ذريعة للتدخل فقد حرص على أن تظل الجماهير فى قبضته وسحب تهديده بسجن موظفى شركة القناة الذين إستقالوا مثل المرشدين وقد أقدم على هذا الكثير منهم .

وازدادت الأعباء على الباقين من الموظفين والمرشدين ولكنهم أبقوا حركة المرور فى سيرها الطبيعى .

ورفض ناصر تجنباً للمتاعب أن يرد على الإجراء الاستفزازى الأنجلو - فرنسي فى تجميد أموال الشركة فى لندن وباريس وإصدار التعليمات إلى سفنهما بدفع الرسوم فى لندن ، وقال إنه على استعداد لأن يقبل هذا حتى يتم إجراء تسوية .

وظلت السفن الإسرائيلية محظوراً عليها المرور فى قناة السويس ، أما فيما عدا ذلك من النقاط فقد حرص كل الحرص وبذل قصارى جهده فى التمسك بنص اتفاقية عام ١٨٨٨ .

وكان من الواضح أنه يسترشد بنصح طيب ولكنه كان من العسير القول فيما إذا كان هذا النصح آتياً من الهنود أو الروس أو من كلا الجانبين .

كما أنه كان فى نفس الوقت ينظم المعونة المادية التى سيواجه بها التهديد الاقتصادى فى تجميد بريطانيا وفرنسا للأموال المصرية .

واستطاع فى محادثاته مع السفير السوفييتى فى مصر كيسيليف أن يدبر إرجاء دفع أثمان الواردات الروسية وزيادة تسهيلات الدفع لروسيا .

وقدمت المملكة العربية السعودية ١٠ ملايين من الدولارات للمبادلات التجارية الجارية ، ووافقت سـ[illegible] على إمداد مصر بـ ١٠٠,٠٠٠ طن من القمح يؤدى ثمنها بالجنيه

كما أن شركات التصـ[illegible] اليابان وألمانيا الغربية - وقد حدتها الرغبة فى الدخول فى أسواق كانت فيما سبق احتكاراً بريطانيا - قدمت سلعها

بشروط دفع ميسورة سهلة .

وأصبح واضحاً قبل أن يحين منتصف شهر أغسطس أن مصر ستكون فى إمكانها مقاومة الضغط الاقتصادى الأنجلو – فرنسى إلى أجل يكاد يكون غير مسمى .

وكانت شركة قناة السويس العالمية فى عمل دائب هى أيضاً .

فقد كان كثير من موظفيها الدائمين فى الأسبوعين الماضيين فى اتصالات لا تنقطع فى باريس ولندن حيث يجتمعون بالسياسيين والدبلوماسيين .

وكانت المسألة التى تولى أهمية كبرى هى موقف المرشدين والفنيين الأنجلو – فرنسيين فى القناة نفسها .

فلقد أجمع الكل – عن خطأ كما اتضح فيما بعد – على أن مصر لا يمكنها تشغيل القناة بدونهم .

وكانت الشركة حريصة على أن تسحب هؤلاء المرشدين سريعاً ، كما كان هذا هو رأى الحكومة الفرنسية أيضاً .

ولكن بريطانيا نصحتهما بالتريث والحذر قائلة إن الوقت لم يحن بعد ، وإن هذه الخطوة تتخذ بعد عقد الاجتماع وبعد أن يرفض ناصر شروطه .

ومهدت الشركة فى هذه الأثناء الطريق لسحب الموظفين بأن أصدرت التعليمات إليهم بأنهم إذا ما تركوا منطقة القناة فإنهم سيستبقون بكامل مرتباتهم وعلاواتهم حتى تتم التسوية ولكنها أشارت عليهم بإرجاء رحيلهم حتى الحصول على أوامر أخرى .

كما كان للشركة نشاط آخر فى دور الصحف الفرنسية .

فقد أرسلت بصفة غير رسمية الصكوك إلى صحف باريس اليومية تحمل مبالغ لم تدفع ، طى خطابات تعرب فيها عن الامتنان لهم لعرضهم لقضيتها وتشير إلى المساهمة فى « التكاليف » .

ولكنه حدث دون قصد أن أرسل أحد هذه الصكوك وقيمته مائة جنيه إلى صحيفة « لينبراسيون » التى كانت على عداء سافر للشركة منذ أن بدأت الأزمة .

فسارعت إلى نشر الخطاب والصك بالزنكغراف على صفحتها الأولى .

وذاع السر ونشرت الصحف الأخرى تصريحات تقول بأنها رفضت أن تقبل هذه المبالغ .

وفى مثل هذه الظروف من المؤامرات التى تحاك ضدها افتتح المؤتمر .

واختير مكان المؤتمر فى لانكستر هوس فى قاعة صغيرة أثاثها تختلط فيه الزرقة بلون الذهب حيث يشيع فيها الدفء ، حشد فى هذه القاعة عدد كبير من الوزراء والدبلوماسيين .

وقد بذلت وزارة الخارجية البريطانية كل ما فى وسعها من جهد لإبعاد الصحافة عن دائرة المؤتمر .

فقد منع الصحفيون من الدخول فى « لانكستر هوس » بدعوى أنهم سيطئون السجاد الثمين ودفعوا إلى دار الصحافة مؤقتاً فى كارلتون هوس .

وهناك كانوا بين الحين والآخر يتلقون تقارير عن سير المؤتمر يقرؤها سير چورج يانج ، رئيس قسم الصحافة فى وزارة الخارجية البريطانية ،

وكان يبدو فى تصرفه الإصرار والتعنت ، وهو ما كان يبدو فى نظر معظم الصحفيين الأجانب الموجودين على أنه يمثل اتجاه بريطانيا كله فى علاج المشكلة ، وكانت المحاولات التى تبذل للاجتماع بالمبعوثين على حدة للتحقق من آرائهم ونياتهم إما أن توضع فى سبيلها العراقيل وإما أن تمنع بكل وسيلة ممكنة .

وعلى الرغم من هذا فما لبث أن وضح أن المؤتمر لا يسير سيراً طيباً، ولقد أقنع إيدن وبينو دالاس بأن يمثل المتحدث الرسمى للدول الغربية وأن يقدم للمؤتمر مشروع الإشراف الدولى على القناة . ولكن دالاس أصر كما جاء فى تقارير الصحف الفرنسية على أن يعدل المشروع بحيث يصبح أقل عنفاً فعدلت تسمية الهيئة الدولية من لفظ « سلطة أو هيئة » إلى لفظ « مجلس » . ثم استقر دالاس – أخيراً على تسميتها باسم « مكتب قناة السويس » وحتى على هذه الصورة لم تلق التسمية ترحيباً من الجميع فبدا أن معظم دول الكومنولث والدول الغربية الأوربية توافق على هذه التسمية ولكن إيران وباكستان داخلهما بعض التردد ، وقدمت أسبانيا مشروعاً وسطاً يقضى بإيجاد مجلس مصرى دولى مشترك ذى محكمة ملحقة به ترفع إليها القضايا إذا ما وقع خلاف ، ورفض مستر كرشنا مينون المشروع أساساً بحجة أنه يتعارض وسيادة مصر . وقدم كرشنا مينون بدلاً من ذلك مشروعاً آخر يقضى بإنشاء هيئة استشارية دولية وبصياغة جديدة لاتفاقية ١٨٨٨ يطلب من مصر التوقيع عليها وتقع فى نطاق سلطات الأمم المتحدة . وكان هذا المشروع إذا ما رجعنا إليه مشروعاً معقولا ذلك لأنه لا ينتقص من

سيادة مصر ، وفى الوقت نفسه يحمى مصالح الدول المستخدمة للقناة لأنه إذا ما انتهكت مصر الاتفاقية الجديدة وإن كان لا يوجد هناك ما يدعو إلى الافتراض بأنها ستفعل ذلك فإن لهذه الدول المستخدمة للقناة أن تتخذ إجراءاتها فى نطاق الأمم المتحدة وحسب ما تقضى به ولم يكن هناك شك فى أن غالبية الدول المشتركة فى المؤتمر كانت على استعداد لأن تقبل مشروع الهند كما أنه لم يكن هناك شك فى أن مصر ستقبله أيضاً ولكن هذا المشروع لهذا السبب عينه لاقى أعنف المعارضة من جانب بريطانيا وفرنسا . ذلك لأن مشروع مينون كان يمهد السبيل لإيجاد تسوية بطريق التفاوض ولكن ما تريده بريطانيا وفرنسا ليس التسوية عن طريق التفاوض بل عن طريق القوة .

وعلى الرغم من هذا فإن كرشنا مينون رغم الضغط الأنجلو- فرنسى رفض أن يسحب مشروعه . وكان الأمل فى بداية الأمر هو أن يجمع المؤتمر باستثناء روسيا على قرار ما . ولكن ما حدث هو أن المؤتمر اضطر إلى الاقتراع ؛ هذا رغم أن بريطانيا التى كانت تتحكم فى سكرتارية المؤتمر رفضت أيضاً فى هذه النقطة استخدام كلمة « اقتراع » كما رفضت فيما بعد استخدام لفظ « الحرب » .

وأيد المشروع الأمريكى سبعة عشر دولة وحد بين صفوفها مستر سلوين لويد ومستر دالاس وأيدت أسبانيا مشروعها الخاص بها وأيدت كل من الهند وروسيا وسيلان وأندونيسيا مشروع مينون .

وكانت الخطوة التالية هى تقديم المشروع الذى حاز الأغلبية إلى مصر.

وعند ما أنهى المؤتمر اجتماعاته أرسلت محاضر جلساته بالطريق الرسمى إلى عبدالناصر ولكن الأمركان يتطلب إيجاد وسيلة فعالة للفت نظره إلى القرارات التى وصل إليها المؤتمر . وفى هذه المرحلة تقدم مستر دالاس باقتراح يقضى بتأليف لجنة فرعية للمؤتمر لحمل المشروع إلى مصر . ووافقت بريطانيا وفرنسا على هذا الاقتراح على أساس هام هو ألا تخول للجنة الفرعية إلا سلطة عد مزايا المشروع ومناقشته ولا يسمح لها بتقديم المشروع باعتباره أساساً للتفاوض .

ولما كان دالاس يحرص على العودة سريعاً إلى وشنطن فقد قبل هذا الشرط وكان هذا خطأ جسيما . وعلى هذا فقد قبل المشروع واختير منزيس رئيس وزراء أستراليا رئيساً للوفد الذى ضم مندوبين عن أربع دول من الدول التى أيدت مشروع دالاس .

وهكذا اختتم المؤتمر جلساته فى جو يسوده السخرية والحقائق الشائكة ، فلقد توجه منزيس إلى القاهرة للتقدم بمشروع هو يعلم تمام العلم أن عبدالناصر سيرفضه رفضاً باتًّا . ثم إنه ليس له سلطة التفاوض . ولكن كل ما يمكن أن يفعله هو أن يسجل رفض عبد الناصر ثم يعود إلى لندن . ثم ماذا يحدث بعد ذلك ؟ وإلى من يقدم تقريره ؟ لم يقرر المؤتمر الإجابة عن أى من السؤالين . ولم يتقرر شىء ، وكان هذا يتفق اتفاقاً تامًّا ورغبات بريطانيا وفرنسا . فقد كانت نظرتهما إلى المؤتمر منذ البداية هى أنه لايعدو وسيلة لإقامة ستار من التأييد الدولى يستطيعان خلفه أن يتخذا أى إجراء يريانه مناسباً وهما لم يريدا بالمؤتمر أن يصدر قرارات لأنهما قصدا إلى أن يصدرا القرارات بأنفسهما .

وكانت الاستعدادات العسكرية التى قصد بها التهديد والتلويح بالخطر الذى يكمن وراء بعثة منزيس تجرى فى هذه الأثناء على قدم وساق وتزداد فى سرعة متصلة . ففى النصف الأول من شهر أغسطس استدعى مايقرب من ٢٥,٠٠٠ من الجنود الاحتياطيين . وأخرجت من مراسيها سفن إنزال القوات وناقلات الدبابات والمدمرات وكاسحات الألغام . أما فى كاتريك وسالسبرى فقد كانت حاملات مدافع البرن والدبابات واللوريات تطلى بطلاء أصفر صحراوى . وبدأت القافلات الكبيرة تتجه إلى الموانئ الواقعة على الشاطئ الجنوبى وكانت السفن المخصصة لنقل الجنود والوحدات البحرية تمخر عباب البحر قاصدة البحر المتوسط من أقاصى الأرض . وخرجت الطائرات طراز كبيرا وطراز هوكر هنتر من ألمانيا . وجمع أسطول بحرى كبير فى مالطة ، ونقلت بالطائرات فرقة مشاة كاملة إلى قبرص وكانت هذه أضخم عملية لنقل الجنود بالطائرات منذ حصار برلين .

وكانت فرنسا أيضاً تأخذ أهبتها . فى الجزائر تجمعت عناصر ثلاث فرق إحداها فرقة مدرعة ، وعسكرت ست كتائب مشاة بالقرب من سفن نقل الجنود فى ميناء مرسيليا . وفى الوقت الذى كان فيه منزيس يتأهب للرحيل إلى مصر صدر بيان من باريس ولندن فى وقت واحد يقول : إنه ضماناً لوقاية الرعايا الفرنسيين وحماية مصالحهم فى شرق البحر المتوسط ، إن دعت الضرورة، فقد سمح لفرنسا بأن تضع قوات معينة فى قبرص . أما فى القاهرة فقد أعلن عبد الناصر أن مصر ستقاوم الغزو بكل الوسائل الممكنة وأمر بالتعبئة العامة .

وفى بريطانيا أدت الأنباء التى تقول بأن قوات فرنسية ستنزل فى قبرص — مؤكدة الشائعات التى تقول بأن قوة غازية على أوسع نطاق قد تجمعت فى الجزيرة — إلى اتساع شقة الخلاف فى الرأى العام البريطانى — وأصبحت الصحافة البريطانية منقسمة انقساماً ذريعاً ، ففى الوقت الذى كانت فيه صحف نيوزكرونيكل وهيرالد ومانشستر جارديان والأوبزيرفر وميرور تهاجم الاستعدادات الحربية هجوماً مرًّا كانت صحيفة ديلى ميل وإكسبريس وتلجراف وسكتش تشيد بهذه الاستعدادات . أما صحيفة « التيمز » فقد كانت تتصرف بطريقة شاذة . فإنها فى مقالها الافتتاحى فى العدد الصادر فى ٣ أغسطس تحت عنوان « مقاومة المعتدى » وصفت وجهات النظر القانونية فى نزاع قناة السويس بأنها ليست إلا « مغالطة ولعباً بالألفاظ وأنها لا تدخل السرور والراحة إلا على ضعاف القلوب المتخاذلين » وعلى هذا فقد لقيت هذه النواحى القانونية من نزاع قناة السويس انتقاداً مرًّا لاذعاً من جانب سير مزوريك ليف. روس وهو أحد خلفاء كرومر فى مصر وسير رالف ستيفنس الذى كان مؤخراً سفير بريطانيا فى مصر ، ويبدو أن محرر صحيفة تيمز والمختص فيها بالشئون الخارجية مستر ماكدونالد قد تروى بعد ذلك وأعاد النظر فى الموقف وعدل عن رأيه الأول ، ومن سوء الحظ أن قام ماكدونالد فى أوائل شهر أغسطس بإجازة وأخذ سير وليام هالى المحرر الذى اقتصر نشاطه الصحفى فيما سبق — وكانت الحكمة تقضى بذلك — على الصفحة المخصصة لمعالجة موضوعات الكتب أخذ على نفسه كتابة المقالات الافتتاحية عن قناة السويس وكان من نتيجة هذا أن طالعت

صحيفة التيمز فى اليوم الأول لانعقاد مؤتمر لندن قراءها مما أثار عظيم دهشتهم بمقال افتتاحى تحت عنوان نادى « الإسكبير » هاجمت فيه من انتقد موقف الحكومة البريطانية بأنهم لا يهتمون إلا بأنباء ديانا دروس وأنهم لا يروقهم إلا الألعاب السحرية والأحاجى ودعت فيه إلى الشعور بالعظمة والجرأة والمغامرة ، وكان من جراء رد الفعل الذى أثاره هذا المقال الجديد من الرثاء وموجة السخط التى عمت الكثير من قراء الصحيفة أن بدأت الصحيفة فى تغيير سياستها ؛ وما إن شن الهجوم على قناة السويس فعلا حتى كانت صحيفة التيمز تعارض الحكومة البريطانية وتنتقدها علانية .

وما إن مضى أسبوع آخر حتى شعرت الصحيفة أن فى إمكانها أن تكتب قائلة : « ولم تخف التيمز شكوكها وقلقها قط إزاء هذا المشروع » .

وحدث تغيير مشابه فى جبهة حزب العمال ولكن كان تغييراً اتسم بسرعة أكبر وما لبث الشعور بالقلق الذى أعرب عنه بعض اليساريين من أصحاب المقاعد الخلفية خلال المناقشة التى جرت فى ٢ أغسطس أن انتشر سريعاً فى الحركة جميعها وجذبت الاجتماعات العاجلة التى نظمتها لجنة السويس الطارئة فى جميع أنحاء البلاد عدداً كبيراً من الناس أثار الدهشة ، كان الرأى العام فى البلاد فى الطريق إلى التعبئة وأشار خطاب نشر فى صحيفة التيمز فى ٧ أغسطس بتوقيع مستر دينيس هيلى ومستر دوجلاس جى — وعن علم مستر جيتسكل كما كان معتقداً — إلى أن زعامة الحزب بدأت تشعر بالانزعاج ورأت الهيئة الوزارية لحزب العمال فى ١٣ أغسطس أن من واجبها إصدار بيان يوجه الأنظار إلى إشارة

مستر جيتيسكل إلى الأمم المتحدة فى خطابه الذى ألقاه فى ٢ أغسطس ، وفى اليوم التالى زار أعضاء الهيئة رئيس الوزراء وطلبوا منه إصدار بيان يشير إلى أن الحكومة البريطانية لا تتأهب لاستخدام القوة بطريقة لا تتفق ونصوص ميثاق الأمم المتحدة ورفض سير أنتونى ذلك وكان هذا قراراً تاريخياً فقد كان معناه أن السياسة الخارجية القائمة على أساس من وجهات نظر الحزبين — وقد كانت إحدى خصائص السياسة البريطانية البارزة منذ سنة ١٩٤٥ — قد قضى عليها قضاء مبرماً ، ومنذ هذه اللحظة أصبح لا مفر من دعوة البرلمان وكان مثار الجدال فقط هو وقت انعقاده ؛ ذلك لأن إيدن التجأ لمدة أسبوعين إلى أساليب الإبطاء والمراوغة ثم دعا البرلمان إلى اجتماع طارئ فى ١٢ سبتمبر .

بيد أن قوات الغزو كانت فى هذا التاريخ قد تم إعدادها وأصبحت على أهبة العمل فقد كانت تعمل فعلا فى نيقوسيا هيئة مشتركة من الموظفين الأنجلوفرنسيين واختير قائدها الجنرال سير تشارلس كيتلى ، وفى هذا التاريخ أيضاً كان مستر منزيس بعد أن قضى دون جدوى خمسة أيام فى القاهرة قد عاد غاضباً صفر اليدين إلى لندن . وكان يوم الهجوم يقترب شيئاً فشيئاً .

بيد أن الغزو لم يقع فى هذا الوقت فقد أرجئ سبعة أسابيع أخرى لماذا ؟ الجواب عن هذا السؤال يتطلب منا أن نفحص مسلك مستر دالاس الغريب .

الفصل السادس

خدعة دالاس

كان من المقرر أن يجتمع البرلمان يوم الأربعاء ١٢ سبتمبر إذ كانت مهمة منزيس قد أخفقت وشاع الانقسام الشديد فى البلاد ، بينما كان حزب العمال قلقاً على نيات الحكومة ، ولذلك كانت المهمة الأولى الملقاة على عاتق السير أنتونى هى أن يصرح بنياته فى مجلس العموم ، وينبغى أن يفترض أنه كان فى ذلك الوقت قد اتفق على شيء مع مسيو موليه وكانت قوة الغزو على استعداد عند ذاك ، وكان أول إجراء يعتزم إيدن وموليه القيام به هو سحب المرشدين والفنيين البريطانيين والفرنسيين من القناة ، مع اعتقاد أنهما بذلك سيحدثان اضطراباً فى انتظام سير العمل فى القناة ، وكانا يعتزمان الالتجاء إلى مجلس الأمن فوراً بمجرد بطء حركة المرور فى القناة ، ولكن روسيا كانت ستستخدم حقها فى الفيتو لمنع مجلس الأمن من اتخاذ أي إجراء فى هذه المسألة ، وبعد أن يئسا من الأمم المتحدة كانا يعتزمان احتلال منطقة القناة مستندين إلى السلطة المخولة لهما بمقتضى اتفاقية عام ١٨٨٨ . تلك كانت الخطة الأنجلو فرنسية وإلى يوم ١٠ سبتمبر كان إيدن قد أعد بياناً ليلقيه فى مجلس العموم يقوم على هذا الافتراض .

ولكنه فى يوم الاثنين الموافق ١٠ سبتمبر — فيما يبدو — تلقى مكالمة تليفونية من دالاس . أما ما حدث بعد ذلك فإنه تحذير لجميع موظفى الخارجية بعدم تصريف الأعمال الدبلوماسية مستقبلا بالتليفون .

إن دالاس كان يحبذ الأسلوب الذى اتبعته بريطانيا وفرنسا كما أنه كان يقرأ التقارير الصحفية عن الاحتشادات العسكرية فى قبرص ، أى باختصار أنه كان يشتبه فى تصرفاتهما ويفكر فيما إذا كانتا تنويان « المضى وحدهما » وإذا كان الأمر كذلك فلا بد لدالاس من منعهما ، لأن الحكومة التى انتخبت عام ١٩٥٢ والتى كان هو عضواً فيها كانت قد انتخبت بناء على سياستها السلمية وهى « إنهاء الحرب فى كوريا » ، كما أنها كانت فى ذلك الوقت على أبواب الانتخابات الجديدة ، فإذا اندلعت نيران الحرب فى الشرق الأوسط — فى ذلك الوقت — فإن آمال الحكومة فى الانتخابات ستتضاءل . بينما تنحى باللائمة على دالاس وعندئذ سيخسر منصبه .

ولكن كيف يمكن وقف البريطانيين والفرنسيين ؟ من الجلى أنه لا بد من أن يعرض لهم حلا بديلا آخر فيه استمالة وإغراء . يبدو أن دالاس قد خرج — بعد مشاوراته لكبار مستشاريه حينئذ — بمشروع جمعية المنتفعين المعروف ،وكان المشروع يقضى بأن تجتمع الدول المنتفعة بقناة السويس وتستخدم مرشديها ، ويفهم من ذلك « المرشدون الإنجليز والفرنسيون » أن تدفع رسومها لنفسها وأن تمر بنفسها فى قناة السويس . وإذا رفض عبد الناصر التعاون مع الجمعية فإن أعضاءها سيقاطعون القناة

بينما تقوم أمريكا بتسديد الحساب — وهذا كان الطعم الذى ضمنته أمريكا مشروعها . وبعد بضعة أشهر افترض مستر دالاس بأن عبدالناصر سيكون على استعداد للاتفاق . ولا يبدو أن مستر دالاس قد تفرغ لبحث تفاصيل المشروع وأنه لم يدخل فى اعتباره التكاليف التى كانت ستتكبدها أمريكا — فى حالة رفض عبد الناصر التعاون — وأنه لم يدرس حتى الإجراء الدستورى الذى يؤدى إلى إقناع الكونجرس بدفع هذا القدر من المال ولكنه لم يقم بشىء فيما عدا التحدث تليفونياً مع إيدن .

أما ما دار خلال هذه المحادثة التليفونية والمحادثة التليفونية الأخرى التى تمت فى صبيحة اليوم التالى فلا يحتمل أن يعرف أبداً ، ولا يقل غموضاً عن ذلك محاولة التعرف على من كان السبب فى الاضطراب الذى ساد بعدئذ سواء أكان الخطأ قد صدر عن دالاس أم عن إيدن . فكان كل من الرجلين فى حالة اضطراب عصبى ، إنه لم يذكر أبداً أن دالاس كان واضحاً أو أن كلامه كان مفهوماً فى أى وقت من الأوقات ، ويبدو أنه لا يفيدنا فى شىء أن نفترض أنه كان فى تلك المناسبة أكثر ذبذبة مما كان فى العادة . وأياً كان الشخص الذى يلقى عليه اللوم فالحقيقة الواضحة التى لا جدال فيها هى أن الأمر انتهى بتوجيه اللوم إلى دالاس. إذ أنه كان لا يرى أى خطر كما أزال شكوكه بعد أن اتفقت معه أمريكا التى تؤيد بريطانيا وفرنسا والتى وافقت على تشكيل جمعية المنتفعين التى كانت ستشق طريقها عبر القناة بل إنها تعهدت بأن تدفع أى خطأ يقع .. إن الصداقة والأخوة الأنجلو أمريكية لم ترفرف أبداً بجناحها فى ١٠ داوننج

ستريت كما فعلت مساء يوم ١٠ سبتمبر سنة ١٩٥٦ .

وكان أول خطوة قام بها إيدن هى أنه قام بتبليغ ذلك إلى الفرنسيين أما الخطوة التالية فكانت تمزيقه للبيان الذى كان قد أعده ، وإعداده بياناً جديداً ، وأخذت كل من وزارة الخارجية البريطانية ووزارة الخارجية الفرنسية تعملان فى خلال الثمانى والأربعين ساعة الماضية بحماسة لإعداد تفاصيل مشروع جمعية المنتفعين . وبعد ظهر اليوم التالى أى فى الساعة الثالثة والدقيقة الثامنة والثلاثين وقف رئيس الوزراء وعلى وجهه ابتسامة عريضة وألقى خطابه فى مجلس العموم وأسهب فى عرض الأزمة كما ذكر الأعضاء بالمسائل الخطيرة التى تنطوى عليها الأزمة ثم وصل إلى النقطة الهامة وهو أن أمريكا وبريطانيا قد اتفقتا على إنشاء « جمعية المنتفعين لقناة السويس » وقال إنه قد بقى وضع التفاصيل الخاصة بالمشروع ولكنه على الرغم من ذلك استطاع أن يرسم فى مجلس العموم صورة دقيقة للمشروع فقال :

« إن جمعية المنتفعين ستستخدم مرشديها وستتعهد باعتبارها جمعية اختيارية أن تقوم بممارسة حقوق الدول المنتفعة بالقناة ، سيطلب إلى السلطات المصرية التعاون لزيادة عدد السفن المارة بالقناة إلى الحد الأقصى . . . ولكن يجب أن أوضح لكم أنه لو سعت الحكومة المصرية إلى التدخل .. فيقاطعه مستر هارولد داڤيز قائلا : « استعارة متعمدة » .

ومضى رئيس الوزراء يقول : . . . . لو تدخلت فى العمليات التى ستقوم بها الجمعية أو رفضت أن تظهر لها الحد الأدنى من التعاون الذى

لا بد منه فإن هذه الحكومة تكون قد انتهكت اتفاقية ١٨٨٨ للمرة الثانية (بعض الأعضاء يصيحون : استقل) وينبغى على أن أذكر لمجلس العموم بأن ما أقول — (عضو يصيح : ياللك من صانع للسلام !) هو نتيجة لتبادل وجهات النظر بين الحكومات الثلاث ، وفى هذه الحالة فإن حكومة صاحبة الجلالة وغيرها من الحكومات المعنية سيكون لها حرية اتخاذ الخطوات الأخرى .

فقال مستر س. و. داڤيز : « ماذا تعنى بذلك ؟ »

رئيس الوزراء : « التى تبدو أنها ضرورية . . . »

داڤيز : « . . . . إما عن طريق الأمم المتحدة أو بأى سبيل آخر تأكيداً لحقوقها » .

واختتم إيدن خطابه قائلا إنه بالاشتراك مع الحكومة الفرنسية قد كتبت رسالة إلى رئيس مجلس الأمن أبلغه فيها الموقف ، وعندئذ جلس بين الصيحات المتعالية الصادرة من مقاعد المحافظين وبين ضجيج أعضاء المعارضة وصخبهم .

وتحدث مستر جيتسكل فكان رده بليغاً — وبمعنى آخر كان هداماً — إذ عرض فيه ضعف مشروع الجمعية غير أن الأعضاء المحافظين لم يعيروه أسماعهم ولم يكن يثير اهتمامهم إن كانت جمعية المنتفعين ستعمل أو لا أو إن كانوا — من الناحية العملية — سيتحكمون فى الملاحة على أضيق ممر مائى فى العالم دون السيطرة على محطات الإشارة ومحطات الخدمة المقامة على شاطئ القناة لتوجيه السفن .

وكل ما كانوا يعملونه أو بالأحرى كل ما عنوا بأن يعملوه هو أننا فى طريقنا إلى قناة السويس وأن الأمريكيين يمضون معنا (وقد أعرب عن ذلك أحد الأعضاء المحافظين حين قال: إننا سنرسل سفينة حربية أمام كل قافلة).

واختتم السير روبرت بوثباى «Robert Boothby» الجلسة فى يومها الأول الساعة التاسعة والنصف مساء بخطابه المرح الذى أعرب فيه عن الشعور بالغبطة والراحة الذى خالج كل عضو من الأعضاء المحافظين.

وقد قال فى ختام خطابه:

« إننى — أثناء سماعى لخطاب رئيس الوزراء بعد ظهر اليوم — كنت أفكر فيما قاله عبد الناصر عما هو فى سبيل الإقدام عليه لينشىء إمبراطورية عربية تمتد من مراكش حتى الخليج الفارسى.

وكيف أنه فى طريقه ليزيل إسرائيل تماماً.

إن كل ذلك قد ذكره فى خطبه، كما ورد فى كتابه الصغير الفظيع المسمى بفلسفة الثورة الذى يعتبر نسخة من كتاب « كفاحى ». وقد قلت لنفسى — وأنا أستمع لخطاب رئيس الوزراء: الحمد لله فإننا على أية حال لن نتعرض ثانية لما تعرضنا له فى الماضى.. وسوف لا نتعرض لذلك».

إن السير روبرت قد أخطأ لأن الأعضاء المحافظين كانوا مضطرين إلى مواجهة المشاكل ثانية — وكان ذلك فى اليوم التالى.

إذ بينما كانوا يغطون فى نومهم ويحلمون بالإمبراطورية كانت واشنطن تغلى.

فبعد أن أذيع نص خطاب إيدن هبت وزارة الخارجية الأمريكية فى فزع ورعب ترى بم وعد دالاس إيدن ؟

وأخذ أعضاء مجلس الشيوخ والنواب يتصلون بالوزارة تليفونيا .

أما الرئيس أيزنهاور فكان قلقاً ولم تمض بضع دقائق حتى تحدث أيزنهاور إلى إيدن تليفونيا وأنجلى كل شىء هذه المرة .

ولا بد أن السير أنتونى إيدن شعر بأنه ضئيل بعد انتهاء المحادثة التليفونية، لقد ارتكب خطأ جسيماً، وهكذا أخذت تختفى دلائل الصداقة والإخاء الأنجلو أمريكية فجأة، إن دالاس قد خدعه للمرة الثانية وأكثر من ذلك كان من المستحيل عليه فى هذه المرة أن يحتفظ بسرية أى شىء .

وفى نفس اللحظة صرح دالاس الذى كان يعانى اضطراباً حينئذ — صرح فى مؤتمر صحفى فى واشنطن بأنه لا يعرف شيئاً عن فكرة اختراق قناة السويس وكل ما كان يفكر فيه هو الإبحار عن طريق رأس الرجاء الصالح، وبينما كان أعضاء مجلس العموم يتأهبون لاتخاذ أماكنهم فى الجلسة الثانية كانت وكالات الأنباء تنقل نص البيان الذى ألقاه دالاس .

وفى منتصف فترة بعد الظهر كان أصحاب المقاعد الخلفية من أعضاء حزب المحافظين فى حالة ذهول وغضب ولم يكن أعضاء مجلس الوزراء أقل منهم غضباً إذ كان الانقسام شائعاً بينهم أثناء أزمة قناة السويس وكانت الأغلبية بزعامة إيدن وسلوين لويد وماكميلان وسالزبورى تحبذ فكرة اتخاذ إجراءات شديدة بينما كان البعض مثل هيثكوت أمورى ومكلويد فى تردد، أما بتلر ومونكتون فكان يقال إنهما يحبذان التفاوض.

ولسوء الحظ أنه عند ما اجتمع مجلس الوزراء لأول مرة بعد استيلاء عبد الناصر على القناة — حيث أصدر فى هذا الاجتماع قراراً باتخاذ موقف خاص — كان بتلر فى عطلة بينما تخلف مونكتون عن حضور الاجتماع لأنه كان يشكو اضطراباً معوياً وعلى أى حال فإنهما عادا فيما بعد وانتقدا زملاءهم بحدة .

وتساءلا عن الأمر الذى أوقعهما فيه ايدن .

إنه ألزم الحكومة باتخاذ إجراء شديد دون أن يتأكد من تأييد أمريكا له تأييداً تاماً .

إنه ولا شك كان يعلم تماماً أن دالاس كان يدرك أن شيئاً مما قاله لا يمكن الاعتماد عليه وإن كان ذلك مسجلا على الورق .

وترى ماذا كان بيدهم أن يفعلوا الآن ؟

وكان أصحاب المقاعد الخلفية يشعرون بالحرج إذ اجتمع وفد منهم حوالى ٥٠ عضواً أو أكثر — اجتمعوا فى ردهات مجلس العموم وقرروا تحذير الحكومة من عدم تأييدهم لأى إجراء مستقل عن الأمم المتحدة والولايات المتحدة .

ووقع الاختيار على السير ليونيل هيلدا النائب العام السابق ليتحدث نيابة عنهم فى الساعة الثالثة والنصف فقال :

إن أى حكومة مسئولة لا يمكنها أن تقدم ضماناً على عدم استخدام القوة فى أى ظروف ، وأضاف قائلا إنه شخصياً لا يستطيع تأييد إجراء ينطوى على انتهاك بريطانيا لالتزاماتها الدولية ، ثم أخذ يقرأ بعض فقرات

من ميثاق الأمم المتحدة واستطرد يقول : إنه قبل الإلتجاء إلى القوة يجب علينا أن نعرض الأمر على مجلس الأمن ، وكان يعتقد أن هذه هى نية الحكومة .

ولكنه طلب إلى الحكومة أن تقدم تأكيداً رسمياً فى هذا الصدد لإزالة أى غموض يكتنف موقفها .

كان حديثاً قوياً فقد طلب فيه رداً صريحاً — نعم أو لا — وبمجرد أن جلس السير ليونيل فى مقعده وقف جيتسكل يتحدث وكان إيدن متغيباً عن الجلسة فى مكتبه بينما كان يجلس سلوين لويد فى مقعده فأشار جيتسكل بأصبعه إلى وزير الخارجية وسأله إن كان على استعداد لتقديم مثل هذا التأكيد مشيراً إلى خطاب السير ليونيل فقال سلوين لويد وسط الصياح والضجيج الذى أخذ يعلو من بين مقاعد المعارضة إن رئيس الوزراء سيتناول هذا الموضوع عند اختتامه الجلسة .

وتأجل موعد إصدار القرار بضع ساعات فقط عند ما وقف إيدن ليخطب فى الساعة التاسعة والنصف ، وكان يبدو على ملامح وجهه علامات الاستسلام وكان أيضاً فى غضب شديد ولكن كان من المحتمل إصدار حكم نهائى على ما قررت الحكومة اتخاذه بالضبط اعتماداً على بيانه ، ولذلك أصر مستر جيتسكل على الحصول على ردود الأسئلة فسأل قائلا : هل إيدن على استعداد ليقول نيابة عن حكومة صاحبة الجلالة إنها لن تشق طريقها عبر قناة السويس بالقوة ؟

ولكن إيدن حاول الاختفاء وراء الصيحات التى تعالت تنادى

« الإجابة » ولكنه استسلم أخيراً لصياح الأعضاء العمال وقال إنه سيعرض الأمر على مجلس الأمن لو رفضت الحكومة المصرية التعاون مع جمعية المنتفعين .

وبعدئذ لم يكن هناك ما يقال ولذلك انتهت الجلسة فجأة .

كان استسلام إيدن خاتمة للمرحلة الأولى من مراحل أزمة قناة السويس وسواء عن قصد أم لحسن الحظ فإن دالاس كان قد نجح فى إسقاط الخطة الأنجلو فرنسية الأصلية لغزو مصر بعد مسألة تأميم القناة دون الإبقاء على أى أمل فى إصلاحها ؛ أما إيدن فكان قد أخفق فى الحصول على تأييد أمريكا للتدخل المسلح ، وبدلا من ذلك فإنه وجد نفسه أمام مشروع جمعية المنتفعين الأحمق الذى اقترحه دالاس وهو المشروع الذى لم يقترحه إيدن الذى كان يعلم تمام العلم أنه مشروع غير عملى ولكنه وجد نفسه مرتبطاً به وهذا ما يشهد به جدول أعمال البرلمان أنه لم يكن مرتبطاً به فحسب بل إنه مضطر إلى الذهاب إلى مجلس الأمن عندما أخفق هذا المشروع الذى كان مصيره إلى الإخفاق بلا شك ، ولكنه لم يكن فى استطاعته أن ينكل عن كل ما قاله فى اليوم السابق . إنه قد تراجع عن أقواله التى شغلت عموداً ونصف عمود فى محاضر الجلسات ولكن لم يكن فى استطاعته أن يحذف كل ما قاله فى الجلسات وكان يشغل أحد عشر عموداً ونصف عمود . وهكذا كانت سياسة حكومة صاحبة الجلالة الآن مرتبطة بجمعية المنتفعين سواء عن رضا أم عن غير رضا .

إذن ماذا كان سيفعل ؟ لقد انسحب المرشدون وصار من الواضح

أن هذا فى حد ذاته لن يؤدى إلى تباطؤ حركة المرور فى القناة ، وبفضل المجهود الذى قام به المرشدون المصريون والمرشدون الذين وفدوا من يوغوسلافيا واليونان وروسيا وألمانيا كان متوسط عدد السفن المارة فى القناة ٢٦ سفينة فى اليوم بينما كان متوسط السفن المارة قبل التأميم ٤٠ سفينة يومياً . وكان إيدن قد صرح بأن جمعية المنتفعين سترغم مصر على الاستسلام أو ترفض مرور السفن مما يكون ذريعة لاستخدام القوة . ولكن اتضح حينذاك أن الجمعية ستحمل السفن على المرور حول رأس الرجاء الصالح. فكم دولة توافق على ذلك ؟ بالطبع الفرنسيون والبريطانيون وربما الأمريكيون أيضاً إذا أوفى دالاس بوعده . ولكن هل يوافق النرويجيون على إرسال سفنهم حول إفريقيا فى الوقت الذى برهن فيه المصريون على أن القناة ما زالت تباشر عملها ؟ وفضلا عن ذلك لم يكن النرويجيون متورطين فى معركة شخصية مع الرئيس عبد الناصر .

وكان إيدن كلما حلل الموقف فى مساء ١٢ سبتمبر اضطر إلى الاعتراف بأن الرئيس عبد الناصر قد كسب المعركة فيما يتعلق بالقناة ولم تكن مسألة القناة وحدها تكفى لقيام فرنسا وبريطانيا بالحرب ، فلم تكن القناة هى المسألة الوحيدة التى تتعلق بالهيبة الشخصية التى يتمتع بها الرئيس عبد الناصر ، فتوجد أيضاً إسرائيل والدول العربية المنهارة التى تحيط بها .

الفصل السابع

خروج المؤامرة إلى حيز الوجود

أخذ السير أنتونى إيدن يتوارى فى الأفق السياسى وهو يحمل حول عنقه العبء الثقيل بجمعية المنتفعين التى وضع فكرتها دالاس وكانت السياسة الإنجليزية الفرنسية بشأن قناة السويس سياسة خربة وكانت قوات الغزو الكبيرة المتجمعة فى قبرص ومالطة والتى تنمو يوماً بعد يوم عديمة الجدوى على الأقل فى هذه اللحظة . ولا يمكن أن تستعمل فى حل مشكلة القناة، فإذا تطور الموقف العام فى الشرق الأوسط بشكل مرض وقررت بريطانيا وفرنسا أن تتأكدا من النتيجة فقد توجد الفرصة لاستعمالها فيما بعد، وفى أثناء هذه الفترة تعثر أنتونى إيدن فى سلسلة من الأعمال السياسية تتابعت وتعقدت من جراء تصريحه المشئوم فى ١٢ سبتمبر .

أولا : كان على لجنة المنتفعين أن تتكون فقد تراجعت بدون رغبتها معظم الدول الثمانى عشر التى اشتركت فى مؤتمر لندن الأول، وكما كان متوقعاً فقد بدأت بداية خاطئة فى أولى مراحلها فقد انزعجت غالبية الدول المنتفعة التى تبحث مشروع دالاس الكيدى فى تدويل القناة وبدأت تشك فى نيات إنجلترا وفرنسا ، وقد رفضت باكستان خاصة رفضاً

باتا أن تشترك فى أى شىء يمثل اتجاه الأقلية فى مسألة مصر ، وقد أوضحت كل من النرويج وإسبانيا وإيطاليا أنها لن تبعث سفنها حول الرجاء الصالح ما دامت القناة مفتوحة ، وقد عمد دالاس إلى السكوت فى موضوع التعويضات سواء بالدولارات أم بالبترول الذى وعدت به أميركا إذا تحرج الموقف ، وقد وضعت وزارة الخارجية الأمريكية خطة الطوارئ لتحويل إنتاج شركات البترول الأمريكى بحيث يمد أوربا باحتياجاتها الطارئة ولكنها رفضت أن تعطى تفاصيل الخطة إلى القسم الخارجى بالوزارة وعلى ذلك فقد وجد فوستر دالاس أن الخطة تحتاج ليس فقط لموافقة الكونجرس بل كذلك إلى تأييد من قوانين أمريكا الاقتصادية التى يحرص الكونجرس على احترامها وعلى ذلك كان من الواضح أنه سيضطر إلى وضع خطته التنفيذية فى مأزق حرج .

ولذلك فقد استطاع أثناء انعقاد المؤتمر أن يقدم لإنجلترا وفرنسا أقل إرضاء ممكن وأيد جمعية المنتفعين ولكنه لم يستطع أن يضمن بأن تدفع السفن الأمريكية الرسم المقرر لمرورها عبر القناة لشركة المنتفعين وحدها . وفى نهاية المؤتمر صرح بأنه عند عودته إلى واشنجتن ستتخذ خطوات مع وزارة المالية ومع مندوبى شركات الملاحة بشأن إتمام هذا التعاون عملياً فى هذا الموضوع ، وهذه العبارة غير الصريحة عملياً تعنى أن وزارة المالية سترفض إعطاءهم الترخيص بالدولارات لدفعها لمصر ولكن تبين فجأة فى لندن أن هناك عدداً كبيراً من الطرق لتجنب هذه الوسيلة وأن مستر دالاس لم يظهر عزماً أكيداً لإحكام خطته .

وأظهرت بعض الدول الأخرى عدم استعدادها للمضى فى هذه الخطة وبذلك فقد وضح أنه إذا اتخذت إنجلترا وفرنسا أى خطوة لتنفيذ هذه الخطة وهى دفع الرسوم للجنة المنتفعين فإن قليلا جداً من المنتفعين سيعملون وفق خطتهما ولتفادى هذا الاختلاف الواضح لم تتخذ أى خطوة فى سبيل تحقيقة وبذلك انفض المؤتمر ولم يتم تسوية الموضوع الأساسى الذى دعا من أجله وهو كيفية دفع الرسوم وجاءت تصريحاته الأخيرة غير واضحة وليس لها أى معنى من حيث تأكيد الطابع التنفيذى للجنة المنتفعين .

وفى هذا الوقت لم يكن من الممكن إخفاء فشل المؤتمر وقد كتبت جريدة التيمز تقول إن غالبية الشعب لا يجد تعليلا قوياً للمؤتمر ونتائجه إن ذلك لمن الصعوبة بمكان ولكن الفرنسيين لم يجدوا صعوبة فى ذلك فقد عمد مسيو بينو فى آخر خطبة ألقاها فى المؤتمر إلى إيضاح أنه غير راض عن فشل المؤتمر فى اتخاذ قرارات حازمة وواضحة وأعلن أن فرنسا ستتخذ قرارات فى غاية التحفظ وقد شعرت الحكومة البريطانية بنفس الشىء ولكنها لم تستطع التصريح به ، ولكن فى هذه المرة لم يدل كل من مستر سلوين ومستر دالاس بتصريحات كثيرة بل اجتمع بعد انفضاض المؤتمر بيوم كل من لويد وإيدن وبينو فى ٢٣ سبتمبر فى اجتماع خاص وقرروا تحدى أمريكا بتقديم شكوى إلى مجلس الأمن وقد أعلنوا عزمهم فى اليوم التالى دون إخطار دالاس وحدد على الأثر يوم ٢٦ سبتمبر لاجتماع مجلس الأمن لبحث الموضوع .

وبذلك بدأت المهزلة فقد تحدد اجتماع جمعية المنتفعين على أن السفراء من البلدان المشتركة فيها سيمثلون بلادهم وعين لها قنصل عام دنمركى كمدير عام لها ولم يخبره أحد بما يجب أن يفعله ولم يجرؤ أحد على إعطائه تعليمات وعلى أى الحالات لم يوجد إنسان يستطيع أن يعرف ماذا تكون هذه التعليمات وقد عقدت عدة مؤتمرات لا معنى لها فى لندن ونيويورك وقد وصفها قسم الشئون الخارجية بالوزارة الأمريكية بأنها ذات طابع فنى .

واجتمع فى أثناء ذلك مجلس الأمن فى جو من التحفظ فقد قدمت بريطانيا وفرنسا شكوى ضد مصر وقدمت مصر شكوى ضد كل من بريطانيا وفرنسا وقد وافق المجلس بعد مناقشات حامية على إدراج شكوى إنجلترا أولا ولكن اقتراحا تقدمت به يوغوسلافيا التى تعد دولة شيوعية مستقلة واعترضت بقوة على الاستعمار الإنجليزى الفرنسى وطلبت وضع شكوى مصر فى المقدمة ولكن هذا الطلب رفض بأغلبية ستة أصوات ضد اثنين وامتنع ثلاثة عن التصويت وحتى أغلبية دول الغرب فى مجلس الأمن قد أظهرت عدم ارتياحها لذلك .

وعندما انعقد المجلس لمناقشة شكوى إنجلترا وفرنسا أظهر سلوين مخاوفه مطالباً بجعل الجلسة سرية ولكن بعد أن أصبحت علنية تقدم الدكتور فوزى وزير الخارجية المصرية بعدة اقتراحات وصفت بأنها قريبة من طلبات الغرب وأظهرت عدم التعنت من جانب مصر . ولذلك فقد اقترح أن الوقت قد حان لأن يجتمع كل من سلوين لويد وبينو

بالدكتور فوزى ويمهدوا للوصول إلى مفاوضات مثمرة وهذا ما أرادت كل من بريطانيا وفرنسا تجنبه بالذات ولكن من الطبيعى ألا تجرؤ كل من الدولتين على رفض هذا العرض المعقول ولذلك فقد حدد يوم ٦ أكتوبر لاجتماع الطرفين فى نيويورك واتفق فى نهاية الأسبوع على ٦ أسس للمفاوضات بشأن القناة وكانت هذه الأسس الستة : (حرية الملاحة والعبور – احترام سيادة مصر – « عزل » أعمال القنال عن المسائل السياسية – تحديد الرسوم باتفاق الدول المنتفعة مع مصر – تعيين « قيمة معينة » من الرسوم للإصلاح والرجوع إليها عند حدوث نزاع بين الطرفين) .

وكما نرى كان المبدأ الفاصل هو الثالث : عزل القناة عن الأعمال السياسة وكان لمهارة مستر همرشلد فى تحمل مسئولياته الفضل فى تهيئه فرصة للطرفين المتنازعين للوصول إلى اتفاق وفى نفس الوقت إنقاذ ماء وجهيهما نسبيًّا وقد توقف كل شىء على كيفيه تفسير المبدأ ولكن المجال أفسح الآن لتسوية يمكن لكل طرف أن يعتبرها نصراً وقد تأكد مستر همرشلد فى مناقشات خاصة من التفسيرات التى قد يقبلها الفرنسيون والبريطانيون ثم كتب شخصياً إلى الدكتور فوزى موضحاً التفسيرات الإنجليزية الفرنسية وسأله إن كان فى إمكانه التمشى معها وكان رد فوزى مرضياً فيما عدا نقطة صغيرة كان من الممكن تسويتها فى مفاوضات مستقبلة وباختصار كان من الممكن حل النزاع على قناة السويس قبل أواخر أكتوبر لأنه كانت هناك أسس للاتفاق ولم يكن

هناك سوى اجتماع الأطراف الثلاثة لوضع عقد محدد ، وقد اقترح مستر فوزى الاجتماع فى جنيف وترك تحديد موعد الاجتماع لبريطانيا وفرنسا ولكن لم يؤخذ بهذا الاقتراح لأن بريطانيا وفرنسا لم تكونا مهتمتين بتسوية النزاع عن طريق التعويضات وقد نشرت هيئة الأمم مراسلات فوزى ـ همرشلد بعد انتهاء مدة الإنذار الإنجليزى الفرنسى مما أصبح دليلاً كتابياً على نفاق الحلفاء .

وفى نفس الوقت كانت فرنسا وبريطانيا تدبران خططهما العسكرية وجاء فى مقالة فى جريدة فرانس أبزرفاتور الصادرة فى أول نوفمبر أنه كان هناك تعارض فى وجهات النظر حتى يوم ١٦ أكتوبر على الأقل. وكانت فرنسا فى هذا الوقت قد ارتبطت بتأييد إسرائيل كلية . وكانت إسرائيل قد أخبرت بينو بأن السلاح التشيكى لمصر سيجعل الحركات العسكرية غير ممكنة فى الخريف ، لأن مصر بدأت تحول قواتها وأسلحتها من منطقة القناة إلى صحراء سيناء كما أنها بدأت فى تنظيم قواعد للإغارة منها على الأراضى الإسرائيلية . وفى الواقع كانت الخطة مرسومة لشن غارة إسرائيلية كبيرة لتحطيم هذه القوات فى أوائل نوفمبر فى الوقت الذى تكون فيه أمريكا مشغولة فى المراحل الأخيرة للحملة الانتخابية وبذلك يكون التصريح الثلاثى غير فعال وقد شجع بينو إسرائيل فى هذا الشأن كما أنه شجعهم على التمادى فى ذلك وتحطيم القاعدة العسكرية المصرية الكبيرة فى سيناء وفى قطاع غزة . وفى أثناء الحملة التى ستبدو كحرب وقائية ـ أعطى بينو تأكيداً بأن فرنسا ستكون على استعداد

لاستعمال الفيتو إذا ما اتخذ مجلس الأمن قراراً بإدانة إسرائيل . وفى نفس الوقت أكثرت فرنسا من شحنات الميستير المقاتلة فرفعتها من ١٥ إلى ٦٠ فى الشهر ـ خارقة بذلك النص على تحديد السلاح فى التصريح الثلاثى واتفاقيه الشراء مع أمريكا ـ كما أنها اقترحت إرسال خبراء فرنسيين للاستعانة بهم فى تمرين الطيارين الإسرائيليين . وقد وقعت فى ١٠ أكتوبر الاتفاقية العسكرية السرية فى باريس بين مسيو آبل توماس عن الحكومة الفرنسية ومستر بيريه عن الجانب الإسرائيلى .

ولكن ماذا عن بريطانيا ؟ كنا لا نزال نحاول الوصول إلى غرضنا فى ضمان زعامة العالم العربى ولكن كان يأسنا فى ازدياد .

. وعلى ذلك لم نكن مستعدين لتشجيع إسرائيل على حرب وقائية ـ حتى لو نجحت فى ذلك ـ كما كان يظن الفرنسيون فى عزل ناصر . كان إيدن يعتقد أنه ما زال فى الإمكان إلحاق خسارة دبلوماسية بناصر عن طريق انضمام الأردن إلى حلف بغداد وبذلك يعكس سلسلة الحوادث المشئومة التى نتجت عن زيارة الجنرال تمبلر ، وعلى أية حال فإن الموقف الداخلى فى الأردن كان سبباً فى زيادة انزعاج لندن والعراق . فقد كانت دائماً مملكة مصطنعة ولكنها بدأت فى التفكك الآن . فأثناء نظام جلوب كانت المملكة الهاشمية ، يؤيدها اللواء العربى ، تمثل البدو العرب من شرق الأردن وهى التى تسيطر على المملكة . وكان عرب فلسطين فى غرب الأردن وهم يكونون نصف الشعب معادين للبريطانيين والإسرائيليين وكان عددهم فى الماضى قليلا فى البرلمان الأردنى

مما ترتب عليه وجود أغلبية موالية للهاشميين . ولكن الآن وللواء العربى فى يد جماعة من الضباط الأحرار الموالين لناصر ، المعادين للبريطانيين والممثلين للفلسطينيين الغربيين فأصبح هناك خوف من أن الأغلبية الموالية لناصر تكسب انتخابات ٢١ أكتوبر .

وما العمل ؟ إذا انقلبت أغلبية البدو فى البرلمان وتألفت حكومة جديدة فمما لا شك فيه أنها ستطالب بحل المعاهدة البريطانية الأردنية . وقد حملتنا هذه الأشياء ضمن أشياء أخرى بأن نركز الطائرات والقوات فى ثلاث مناطق فى الأردن . وكانت إحدى هذه المراكز فى العقبة عند تقابل الحدود الأردنية والإسرائيلية والمصرية . وإذا حرمنا من هذه القاعدة فإن أى عملية فى منطقة البحر الأحمر ستصبح أكثر صعوبة .

لم يكن هذا هو الخطر الوحيد . فإن المملكة الأردنية فى موقفها المزعزع الحالى كانت مطمعاً لثلاثة جيران أكثر قوة : سوريا تريد جذبها إلى محور القاهرة — ودمشق ، والعراق متشوقة إلى إدخالها فى حلف بغداد ، وإسرائيل التى رغبت فى احتلال غرب الأردن لتسيطر على أخطر جزء فى الدفاع عن حدودها وفى نفس الوقت تحتفظ كلية لنفسها بنهر الأردن .

فإذا بدأت إحدى هذه الدول بتنفيذ غرضها فمما لا شك فيه أن الدولتين الأخيرتين ستتدخلان أيضاً وتصبح الأردن ساحة للقتال .

كان هذا هو الموقف فى أواخر سبتمبر . وكانت السياسة البريطانية

واضحة : الوصول إلى دخول القوات العراقية فى الأردن للسيطرة على الانتخابات والمحافظة على تماسك المملكة الهاشمية المزعزعة وخلق جو يضمن ضم الأردن لحلف بغداد . وتكون ضربة قوية لنفوذ ناصر ، وقد أعد الترتيب لذلك وسيكون نصراً عظيما لبريطانيا وكسباً للحكومة .

وبعد ذلك تكون المفاوضـــات لتسوية أزمة السويس اقتراحاً عملياً . ولسوء الحظ كان البرنامج يتطلب موافقة فرنسا ، لأن فرنسا إذا لم تؤيد بريطانيا فإن حليفتها إسرائيل لن تسمح باحتلال العراق للأردن وإذا أعلنت إسرائيل أنها ستعتبر دخول القوات العراقية عملا عدائياً فإن الحكومة سترفض تنفيذ الخطة .

كان هذا هو الموقف يوم ٢٦ سبتمبر عندما طار أنتونى إيدن ومستر سلوين لويد إلى باريس لإجراء محادثات خاصة وقد نشرت بعد ذلك « فرانس أبزرفاتور » ما جد فى أثناء هذه المحادثات . ويبدو أن بريطانيا فشلت فى الحصول على موافقة فرنسا على خطتها وقد أظهر موليه أن فرنسا لا تكسب شيئاً من تأييد مصالح بريطانيا فى الأردن وحتى إذا قبلت إسرائيل الخضوع للضغط الفرنسى فإنها سوف لا تنفذ لهم ذلك ، ومما لا شك فيه أنها سترفض فى المستقبل التعاون ضد ناصر وأضافت أنه على أى حال مشكوك فيما إذا كانت هذه الهزيمة الدبلوماسية الفاصلة ستؤدى حقاً إلى قلب نظام ناصر ، الذى هو أخيراً الهدف الرئيسى للسياسة الفرنسية .

وحتى مع ذلك فإن الوزراء البريطانيين رفضوا الموافقة على الخطة الفرنسية بحجة أنها قد تجبر العراق على ترك حلف بغداد . كانت المناقشات طويلة وحامية ولم يكن أحد من الجانبين على استعداد للتضحية ، ووضح بعد ست ساعات أنه من غير الممكن الوصول إلى تسوية . ولكن هذا الأمر ظل سراً مكتوماً . وفى ظل ازدياد العزل السياسى للدولتين أصبح للاتفاق الودى أهمية ولا يسمح لشىء بهدمه . فلذلك كان من الضرورى الانتهاء من المحادثات بنشر بيان يؤكد الاتفاق البريطانى الفرنسى التام ويتضمن بعض التأكيدات الواضحة ولكن بماذا ؟ لم يكن هناك شىء معين يمكن أن يتفقوا عليه . ثم تذكر مسيو بينو بمكره مشروع السوق الأوربية للمنتجين ، فمنذ الحرب ومن حين لآخر يضع الفرنسيون هذا المشروع للبريطانيين فيرفضه البريطانيون .

كان وضع الخزينة المثقلة غير مشجع للفكرة ، كما كان من المنتظر أن يعارضها جانب كبير من المحافظين (وليس هنالك داع لذكر موقف صحافة بيفربروك) ولذلك لم تصل بريطانيا إلى قرار حاسم فى هذا الموضوع . وقد قبل إيدن اقتراح بينو دون رغبة منه فى ذلك وإن كان قد اشترط أن يكون من حق بريطانيا أن تقدر إلى أى مدى يمكن أن تشترك اشتراكاً فعالا فى هذه السوق . وقد ترك الاتفاق على التفاصيل غامضاً . والشرط الوحيد الذى اشترطه إيدن هو أن يحتوى البلاغ الذى يصدر عن الاجتماع على إشارة احتمال اشتراك فرنسا فى حلف بغداد وهذه خطوة رفضت فرنسا رفضاً باتاً حتى ذلك الحين أن تخطوها . وقد

أعد البلاغ ونشر وأعطيت التلميحات الكافية القوية للمراسلين السياسيين فى باريس . ولذلك اعتبر الاجتماع ناجحاً نجاحاً باهراً . وإن لم يعرف إنسان ما نجح فيه الطرفان . ونشرت جريدة التايمز بالخط العريض «تقوية الوحدة الفرنسية البريطانية. إيدن يزور باريس زيارة ناجحة» .

رجع إيدن إلى لندن يحس بوطأة العبء: فلم يفشل فقط فى إشراك فرنسا فى مؤامرة الأردن بل لقد ربط نفسه بعجلة السوق المشتركة . وهى منظمة لا يعرف عنها الكثير ولا يعتقد فى إمكان تنفيذها ولا بد أن تثير عليه غضب أعضاء حزبه وكان الاجتماع السنوى للحزب على وشك الانعقاد حيث ينتظر أن يوجه إليه الأعضاء أسئلة عن مشكلة السويس وكذلك عن السوق المشتركة .

ولذلك قدر إيدن القيام بمؤامرة الأردن وحيداً وقدمت له إسرائيل فى ١٠ أكتوبر ما يبرر المؤامرة . فقد قامت بهجوم قوى منظم ردت به على بعض الحوادث الأخيرة على الحدود . فبدأ إيدن فى العمل فى الحال وشجع نورى السعيد على أن يقترح إرسال جيش عراقى إلى الأردن وتحرك الجيش إلى الحدود الأردنية . ولكن فرنسا احتجت علناً وفى قوة ، وأصدرت الحكومة الإسرائيلية إنذاراً بأنه إذا دخل الجيش العراقى الأردن فإنها سوف تعتبر ذلك إعلاناً للحرب . واشترط الملك حسين ملك الأردن أنه لا بد أن يخضع الجيش العراقى للقيادة الأردنية إذا ما دخل بلاده وكان يعرف أن نورى السعيد سوف يرفض هذا الشرط . فوقف الجيش العراقى

على الحدود الشرقية . وفشلت المؤامرة . وكان فشلها هزيمة سياسية علنية أخرى لبريطانيا .

إن الأمور تسير من سيء إلى أسوأ والحكومة البريطانية تشعر باليأس . ووصلت هيئة الأمم فى يوم الجمعة إلى اتفاق بشأن المبادئ الستة وأصبح خطر تسوية مشكلة السويس عن طريق المفاوضات يبدو قريباً. وزاد ضغط الرأى العام بشأن تسريح الاحتياطى . فقد كان هناك ٤٠,٠٠٠ جندى فى مالطة وقبرص يعيشون دون عمل وفى تمرد متزايد وتخلص مجلس الأمن فى ١٤ أكتوبر من مشكلة السويس تخلصاً نهائياً . بأغلبية ٩ أصوات ضد صوتين واستعملت روسيا حق الفيتو كما كان منتظراً وكان على إيدن أن يتخذ قراراً حاسماً وعلى وجه السرعة . هل يدخل المفاوضات بشأن السويس أو يعمل للحرب ؟ ولم يكن يستطيع إلا أن يدخل الحرب فى حالة نشوبها بين العرب وإسرائيل .

وكان أن اتفق على استئناف المحادثات البريطانية الفرنسية فى ١٧ أكتوبر واتصل إيدن تليفونياً بباريس لتقديم موعد الاجتماع يوماً وطار إلى باريس ومعه سلوين لويد وقضى خمس ساعات مع موليه وبينو ودارت المحادثات فى سرية تامة فلم يحضرها أحد من السكرتارية أو المستشارين أو المترجمين وإن علم فى دائرة محدودة أن هناك قراراً خطيراً قد اتخذ . وبعد يومين أبعد سير ولتر مونكتون عن وزارة الحربية وعين مكانه سير أنتونى هيد ، وقد دلت المعلومات التى وصلت إلى أمريكا فى صباح اليوم التالى إلى أن هناك تغييراً فى وزارة الخارجية فى كل من

فرنسا و إنجلترا و إقصاء كبار الدبلوماسيين عن تلقى البرقيات المتبادلة بين باريس والشرق الأدنى وتحولت الرسائل الدبلوماسية بين لندن و باريس من وزارة الخارجية إلى مكتب رئيس الوزراء مباشرة ، وإن كثيراً من الأعمال الدبلوماسية كانت تسلم عن طريق وزارة الحربية الفرنسية وقد صرحت الدوائر الإيطالية فى روما فى يوم ١٧ أكتوبر أن عدد البرقيات المتبادلة بين باريس وتل أبيب قد زادت زيادة كبيرة ويعتقد أن المخابرات الأمريكية قد حصلت على بعض هذه البرقيات .

وقد ارتابت الدوائر الأمريكية فى الأمر ، وأرسل الملحق العسكرى فى تل أبيب يشكو من أن زملاءه الفرنسيين والبريطانيين يحتاطون فى الحديث معه و يتجنبون الخوض معه فى نيات إسرائيل العسكرية وكانت هذه المحادثات اليومية تكون جزءاً من الاتفاق الثلاثى . وتنبه رئيس الولايات المتحدة إلى ذلك على الرغم من انشغاله بالحملة الانتخابية وطلب إلى البعثات الأمريكية تحرى الأمر لمعرفة نيات بريطانيا وفرنسا ولكن هذا التحرى لم يكتب له النجاح .

ثم اقتربت الساعة الفاصلة ، فقد أجريت الانتخابات فى الأردن فى ٢١ أكتوبر وحجز اللواء العربى فى ثكناته ، وكما كان منتظراً هزم البدو وفازت الأحزاب الموالية لارئيس جمال عبد الناصر بمقاعد البرلمان وانتصر الإشتراكيون القوميون الذين كانوا يهيئون لتعديل المعاهدة البريطانية إن لم يكن لإلغائها وألف أحد قادتهم الوزارة . وكانت لندن لا تعتقد أن الأردن يقدم على إلغاء المعاهدة فى الحال لأن المعاهدة كانت أحسن

ضمان لصد الهجوم الإسرائيلى . ولكن كان من الواضح أن النفوذ البريطانى قد انتهى أمره هناك .

وحدثت كارثة أخرى فى اليوم التالى فقد كانت جماعة من قادة الثورة الجزائرية فى الرباط ومن بينهم ابن بلا أشهر أعضاء جبهة التحرير القومية بأساً . كانوا هناك ضيوفاً على سلطان مراكش . وكانوا معتزمين السفر فى ٢٢ أكتوبر إلى تونس ، لحضور مؤتمر مراكشى تونسى جزائرى لوضع خطة للسلام فى الجزائر ، وكان موليه على علم بهذه الخطة ومشجعاً عليها فقد اعتقد أن اعتدال بورقيبة والسلطان محمد الخامس قد ينجح فى الحد من تطرف الثوار حتى يمكن تمهيد السبيل إلى مفاوضات مجدية مع فرنسا .

ومن سوء الحظ أن علم بأمر الخطة ماكس بلجون « Max Léjeune » سكرتير الدولة للحرب وكذلك وزير الدفاع بورجيه مونورى عن طريق المخابرات الفرنسية وأرغم السلاح الجوى الفرنسى الطائرة التى تحمل الزعماء الثوار الخمسة فى يوم ٢٢ أكتوبر إلى تونس على النزول فى الجزائر وقبض على الزعماء .

ويبدو أن عملية القرصنة والإخلال بقوانين الطيران الدولية كانت بناء على تعليمات ماكس ليجون .

وحتى روبرت لاكوست لم يكن يعلم بالأمر حتى قبيل هبوط الطائرة إلى الأرض . ولم يعلم موليه بالخبر إلا بعد أن وقف الثوار أمام المحكمة العسكرية . وقيل إنه صاح قائلا : « إنكم مجانين ، يجب العفو عنهم فى

الحال » وحاول وضع أوامره موضع التنفيذ ولكن التنفيذ قد تأخر عمداً . وفى صباح اليوم التالى هللت أغلب الصحف الفرنسية للقبض على زعماء الثورة واعتبرته انتصاراً فرنسياً رائعاً . فاضطر موليه إلى تغيير موقفه بل وافق على القبض بعد اجتماع مجلس الوزراء ونتج عن ذلك أن قطعت مراكش علاقاتها السياسية مع فرنسا وبدأت فى المساعدة الفعلية للثوار فتدهور الموقف العسكرى فى شمال أفريقيا تدهوراً كبيراً أصبحت معه الحاجة شديدة لانتصار عسكرى باهر فى الشرق الأدنى .

وفى الوقت نفسه قررت إسرائيل غزو مصر وأشار بن جوريون فى ١٧ أكتوبر إلى سياسته الجديدة فى خطبة طويلة ألقاها فى الكنيست، نبه الأعضاء خلال حديثه عن الأردن الذى كان حتى هذه اللحظة موضع الاهتمام إلى أن مصر هى العدو الحقيقى . وهاجم نظام الحكم فى مصر مهاجمة شديدة والتاريخ هنا هام ، فإنه اليوم الذى أعقب الاتفاق السرى بين فرنسا وإنجلترا . . نستطيع القول عن يقين إنه قد تسلم الإذن من الفرنسيين فى الليلة السابقة. ويقال إن صورة البرقية التى أعلنت هذا الخبر والتى تضمنت ما يأتى : « نستطيع أن نعتمد اعتماداً مطلقاً على البريطانيين » قد وقعت فى أيدى السلطات الأمريكية وتعتبر جزءاً هاماً فى وثائق الملف الكبير الخاص بهذا الموضوع فى وزارة الخارجية الأمريكية .

وقد ألقيت خطبة الكنيست لتهيئة الرأى العام فى إسرائيل لتغيير السياسة الإسرائيلية وقد خطت إسرائيل يوم ٢٥ أكتوبر خطوة أخرى

فقد أعلن متحدث إسرائيلي أن الفدائيين المصريين الذين يعملون فى قطاع غزة وفى سيناء قد استأنفوا هجماتهم لى الأراضى الإسرائيلية .

وهكذا بررت إسرائيل حجتها فى الهجوم وبدأت التعبئة فى اليوم التالى وأعلنت التعبئة الجزئية رسمياً يوم الأحد ٢٨ أكتوبر .

وكان رد الفعل سريعاً فى الدول الغربية . فقد أعلن أن مندوب بريطانيا فى تل أبيب قد سلم وزيرة الخارجية هناك مذكرة تنص على أن بريطانيا سوف تنفذ نصوص المعاهدة البريطانية الأردنية فى حالة هجوم إسرائيل على الحدود الأردنية ، أما حالة الهجوم على مصر فلم تشر المذكرة إليه إطلاقاً . ثم إن الممثل البريطانى قد قضى ساعتين فى الحديث مع الوزيرة الإسرائيلية . وقد أدهش طول الوقت السياسيين الأجانب لأن مثل هذه المقابلة لا تزيد فى العادة على عشر دقائق . وأما فى وشنجتن فقد أرسل الرئيس أيزنهاور خطابين إلى بن جوريون نصحه فيها بالإقلاع عن الأعمال الحربية . وقيل بعد ذلك إن هذين الخطابين كانا سبباً فى تقديم موعد الهجوم على مصر ستة أيام . وأعدت قوة كبيرة من لواءين تركت فى مراكز مختلفة من بينها إيلات كما لوحظت التحركات من القاعدة البريطانية فى العقبة وكان لا بد أن تكون التقارير قد أرسلت إلى المستر أنطونى هيد وزير الحرب فى بريطانيا . وفى ٢٧ من أكتوبر طالب الرئيس أيزنهاور بعقد اجتماع طارئ للجنة الثلاثية فى واشنطن وقد استمرت الجلسة واستغرقت ٢٧ و ٢٨ منه ولكن فشل ممثلو بريطانيا وفرنسا فى إذاعة ذلك النبأ لرفاقهم الأمريكيين وكان ذلك النبأ

كما يبدو الآن في حوزتهم .

وقد كمل الآن انهيار حلف الأطلنطى .

وفى الساعة الرابعة والنصف من يوم الاثنين الموافق ٢٩ من أكتوبر تحركت الواحدات الإسرائيلية المدرعة فى قوة وسرعة ودخلت الأراضى المصرية وبدأت حرب السويس .

الفصل الثامن

الحرب

باغتت أنباء الغزو الإسرائيلى العالم الذى فاجأته الحوادث التى كانت تجرى فى المجر .

ومن الفظاعة – فى وقت بدء انهيار الإمبراطورية السوفييتية – أن يكون الإسرائيليون قد عقدوا العزم على إثارة القلاقل وجر العالم إليها .

ولكن الصحافة البريطانية حين سارعت إلى مناقشة الإجراء الذى يجب أن تقوم به بريطانيا فى شىء من القلق وبعثت المعاهدة الإنجليزية المصرية من جديد وطالبت الديلى إكسبريس بأنه « يجب ألا يكون هناك أى تردد فى الالتجاء إلى نصوص اتفاقية الجلاء التى تخول لبريطانيا الحق فى موقف كهذا أن تحتل القاعدة الموجودة فى السويس من جديد » .

وهذا غير صحيح من الناحية الواقعية : فلقد أبعدت المعاهدة صراحة النزاع العربى الإسرائيلى من النص الذى يبيح لبريطانيا فيه أن تحتل السويس مرة أخرى وقت الحرب .

ويبدو أن كل الصحف الأخرى قد فهمت هذا .

ولقد شعر الجميع فى لندن أن الحكومة ستحيل النزاع إلى مجلس

الأمن وأن يباح للإسرائيليين القضاء على الجيش المصرى .

كانت الحكومة فى اضطراب .

فقد حددت إسرائيل يوم الغزو ٧ نوفمبر وبعد التحذير الذى وجهه أيزنهاور قدموا الموعد أسبوعاً ومن الواضح أن الوزراء الثلاثة الذين اشتركوا فى المؤامرة وهم إيدن ولويد وهيد قد أخطروا بتغيير الخطة قبل عطلة نهاية الأسبوع وكان لا بد من الإسراع بالاستعدادات الخاصة « بعملية المسكتير أو الفارس » كما كانوا يسمونها فى قبرص ومالطة وتقرر إلغاء تلك الاستعدادات السياسية التى اتخذت بعناية وحرص لإبلاغ أعضاء الحكومة الآخرين نهائيا .

وفى صباح الثلاثاء طار موليه وبينو إلى لندن لكتابة نص الإنذار وتحديد وقت إعلانه لبرلمانهم .

وبعد ذلك اجتمع مجلس الوزراء وأبلغهم إيدن الأنباء .

وفى المناقشة التى تبعت ذلك ـ تلك المناقشة التى كانت مرة واستغرقت وقتاً طويلا ـ كان على هؤلاء الذين عارضوا التدخل فى السويس صراحة إما الموافقة أو الاستقالة وكان على المستر بتلر وهؤلاء الذين يشاركونه رأيه فى المشكلة أن يصدوا زعيمهم علانية ـ وبذلك يخاطرون لا بالقضاء على الحكومة فحسب بل على حزب المحافظين نفسه .

أو يؤيدوا الخطة وبذلك يتحملون المسئولية مع الحكومة .

وقد سلكوا المسلك الثانى :

وامتلأت دهاليز مجلس العموم بالأعضاء الذين اعتراهم القلق وكانوا

يناقشون تلك التقارير الواردة تليفونيا من باريس — التى تقول إن بريطانيا وفرنسا تعدان العدة لغزو منطقة القناة فى هذه الليلة .

وفى الساعة الرابعة والربع اجتمع إيدن بجيتسكل وجريفيبيه فى حجرته الخاصة بالمجلس وأبلغهم جوهر بيانه الذى سيصدره بعد ربع ساعة .

وفى هذه الأثناء كانت وزارة الخارجية مسرحاً لبعض الأعمال الغريبة .

فقد استدعى السفير الأمريكى أمام سير إيفون كيركباتريك وكيل وزارة الخارجية البريطانية الدائم وأطلعه على نية الحكومة .

فترك الحجرة دون تعليق واتصل فى الحال بأيزنهاور تليفونيا . وبعد ذلك اجتمع سير إيفون الذى كان مسيو بينو يقف خلفه بالسفير المصرى ثم بالسفير الإسرائيلى وقرأ على كل منهما نص الإنذار « يجب على الطرفين أن ينسحبا ١٠ أميال من القناة فى ظرف ١٢ ساعة وعندئذ ستحتل القوات البريطانية والفرنسية بورسعيد والإسماعيلية والسويس . إذا لم يتم هذا الانسحاب فستبدأ بريطانيا وفرنسا فى العمل » لقد كان ذلك الإنذار « كما ذكر فى بيان رسمى أصدرته وزارة الخارجية الأمريكية » أفظع إنذار فى التاريخ الحديث .

وفى هذه الأثناء كان إيدن يبلغ المجلس هذا النبأ وقد علت صيحات المعارضة ولقد لمح إيدن فى بيانه إلى مجلس الأمن الذى كان قد بدأ فى عقد جلسة طارئة فى الساعة الرابعة ولكن لم يرد أى ذكر فى بيانه عن

الإعلان الثلاثى ولكن إيدن ذكر ضمناً أن بريطانيا وفرنسا كانتا تشاوران أمريكا وحكومات الكومنولث فى جميع المراحل . وأوضح أن هناك فى القناة من السفن ما تقدر حمولته بخمسين مليوناً من الجنيهات يجب حمايتها ولم يذكر إيدن أسباب عدم إخطار هذه السفن قبل الاعتداء الإسرائيلى وطالب جيتسكل بإرجاء المجلس حتى الساعة الثامنة لكى يتاح له مناقشة البيان وفى هذه الأثناء طالب الحكومة بأن توقف القيام بأى عمل وبأن ننتظر ما سيتخذه مجلس الأمن من قرارات وقد رفض إيدن أن يعطى مثل هذه التأكيدات وكانت ساعات الإنذار تسرع إلى النهاية وفى الساعة الثامنة أصدر إيدن بياناً آخر دافع فيه عن نفسه لأنه لم يلجأ إلى الإعلان الثلاثى على أساس أنه قرأ فى الصحف المصرية أن مصر لم توافق على الإنذار وقد أنهى ذلك بقوله : دعوهم يطعنون فى حكمنا وإنى آمل أنهم لن يطعنوا فى بواعثنا وإن ذلك هو ما واصلت المعارضة القيام به . ولقد أعاد جيتسكل طلبه فى أنه على بريطانيا أن توقف القيام بأى عمل حتى ينتهى مجلس الأمن من مداولاته فى المساء ولكن الحكومة رفضت ذلك مرة ثانية وكانت هذه هى أول خطوة نحو الصخب التام الذى عم المجلس فى الأسبوع التالى .

أما فى نيويورك فإن بريطانيا وفرنسا كانتا متجهتين نحو كارثة خلقية لم يتنبأ بها حتى إيدن نفسه وكان أيزنهاور فى غضب شديد لما سماه « بالخدعة البريطانية » وأبلغ مندوب الولايات المتحدة فى مجلس الأمن بأن يسد الطريق بأية وسيلة يراها أمام ذلك العمل العسكرى الذى تقوم به

بريطانيا وفرنسا .

ولقد قدم لودج مشروع قرار إلى مجلس الأمن يقضى بأن تنسحب إسرائيل وأن تمتنع الدول من مساعدة إسرائيل ولقد وافق على ذلك سبعة أصوات ضد صوتين : بريطانيا وفرنسا وامتنعت أستراليا وبلجيكا عن التصويت فقد استخدمت كل من فرنسا وبريطانيا الفيتو ضده وكانت هذه أول مرة تستخدم فيها بريطانيا حق الفيتو وبعد ذلك طالبت روسيا بوقف إطلاق النار وطلبت من إسرائيل أن تنسحب وراء خطوط الهدنة التى عقدت فى ١٩٤٨ ولقد امتنعت كل من أمريكا وبلجيكا عن التصويت أما باقى الأعضاء بها فيهم أستراليا فقد صوتوا ضد بريطانيا وفرنسا وأجبرت كل منهما على استخدام الفيتو وحاول سير بيرسون دكسون الذى بدا أنه تضايق من هذه الأعمال أن يتحدث فى سرية مع لودج ؛ بيد أن لودج انتحى جانباً وبعد الجلسة انهار منسيو كورنيه جينتيل مندوب فرنسا .

وأثناء الليل انتشرت أنباء الكارثة فى مجلس الأمن عن طريق الوكالات ولقد انتقدت صحافة العالم بمرارة الإنذار الإنجليزى الفرنسى فأصدرت كندا بياناً توضح فيه أنها لم تشاور فيه وتأسف على العمل الذى قامت به بريطانيا ووقع رؤساء وزارات الباكستان والهند وسيلان بياناً مشتركاً يستنكرون فيه الاعتداء الإنجليزى الفرنسى على مصر ووضح أن بريطانيا وفرنسا أرسلتا الإنذار دون أية مشاورات مع حلفائهما .

وهاجمت الصحافة البريطانية باستثناء القليل منها الحكومة فقد رحبت كل من الإكسبريس والإسكتش بالإنذار وأرجأت كل من الميل والتلجراف

الحكم عليه، وانتهجت التيمز نفس المسلك تقريباً . . ووصفت المنشستر جارديان هذا الإنذار بأنه «عمل يدل على البلاهة وليس له أى مبرر» . وأعلنت كل من « النيوز كرونيكل » و « الديلى هيرالد » استنكارها الكلى الشديد للحكومة .

وفى هذه الأثناء لم تعرف الأمة نيات الحكومة عما إذا كنا فى حرب . لقد أحيط الشرق الأوسط بستار كثيف لا يمكن اختراقه من الحماية وفى الساعة الثالثة والنصف نهض إيدن ليلقى ببيان على المجلس . ولم يزد شيئاً عما عرفه الأعضاء ولكن انهالت الاستجوابات من المعارضين ؛ هذه الاستجوابات التى أجبرت إيدن على الاعتراف بأنه لم يجر مشاورات مع أمريكا أوحكومات الكومنولث، عندئذ سأله جيتسكل عما إذا كانت بريطانيا فى حرب مع مصر ورفض إيدن الإجابة عن ذلك . لقد شهد المجلس مشهداً فريداً فى تاريخ بريطانيا . وسأل المستر كاليجان : هل تشتبك القوات البريطانية الآن فى مصر ؟ هل نزلوا أو أين هم الآن ؟

رئيس الوزراء : إنه كما صرحت أمس . . .

الأعضاء المحترمون : أجب .

صوت المتكلم : النظام . . .

المستر باجت : كيف نناقش مسألة الحرب بينما لا تخبرنا الحكومة عما إذا كانت قد ابتدأت؟

رئيس الوزراء : إنه ليس لدى أى استعداد لأن أذكر للمجلس أية تفصيلات .

وتصايح الأعضاء المحترمون : استقل ؟

مستر جيتسكل : إن ذلك لموقف غريب . . . إن المجلس جميعه والبلد بأسره ينتظران إجابة لذلك السؤال .

ومن المناقشات الدائرة اعترف إيدن بأن بريطانيا فى حالة حرب. وعندئذ نهض جيتسكل وألقى هذا الخطاب :

« إن كل ما أستطيع قوله هو أنه باتخاذ هذا القرار تكون الحكومة فى رأى المعارضة قد ارتكبت عملا ذا حماقة مهلكة سيؤدى إلى عواقب وخيمة نأسف عليها لعدة سنوات .

نعم سنأسف عليها جميعاً لأنها ستودى بهيبة واسم البلاد .

ولا يعد هذا العمل هجوماً صريحاً على المبادئ الثلاثة التى حكمت السياسة البريطانية الخارجية منذ العشر سنوات الأخيرة : الاتحاد مع الكومنولث والاتحادالإنجليزى الأمريكى ، والتمسك بميثاق الأمم المتحدة ...

ويجب أن أذكر هنا وأبلغ الحكومة والشعب أننا لا نستطيع أن نؤيد هذا العمل الذى اتخذ وإنى أشعر أننا مضطرون لأن نعارض بكل الوسائل الدستورية » .

ولم يقم حزب العمال بمعارضة الحرب فى المجلس فحسب بل قام بشن حملة واسعة النطاق ليجبر الحكومة على الاستقالة .

وبعد ظهر ذلك اليوم نظمت الاجتماعات التى عقدتها الجماهير فى البلاد . وكان موضوع الحملة هو « القانون وليس الحرب » .

وفى مساء الأربعاء ٣١ أكتوبر قدمت يوغوسلافيا اقتراحاً يقضى

بعقد جلسة طارئة للجمعية العامة للأمم المتحدة وقد صوتت سبع دول ضد بريطانيا وفرنسا وامتنع كل من بلجيكا وأستراليا عن التصويت ولكن إيدن رفض فى اليوم التالى أن يعطى أى ضمان من أن بريطانيا ستحترم القرارات التى تتخذها الجمعية العامة.ولقد ارتفعت الأصوات حتى أصبح من العسير أن تستمر المناقشة وأرجئ انعقاد مجلس العموم لأول مرة منذ ثلاثين سنة وفى تلك الليلة صوتت ٦٤ دولة فى الجمعية العمومية فى صالح قرار بوقف إطلاق النار وكان ذلك ضد خمسة أصوات وكانت هذه هى أكبر أغلبية تمت فى الجمعية العامة ولكن رفضت بريطانيا الموافقة على هذا القرار .

وأبلغ مستر هيد وزير الدفاع المجلس بأن العمليات الحربية قد ابتدأت ضد مصر وبدأت أعداد هائلة من القاذفات البريطانية والفرنسية فى الهجوم على المطارات وبعض الأهداف العسكرية الأخرى فى منطقة قناة السويس .

وفى مساء الجمعة ووجه مستر بتلر من رئيس المجلس الذى كان عدم ارتياحه واضحاً بطلب مؤداه أن يستمر المجلس فى الانعقاد ولكنه وافق على عقد جلسة خاصة يوم السبت . وفى صباح اليوم التالى (السبت) أبلغ إيدن المجلس أن بريطانيا قد تسلمت نص القرار الذى اتخذته الجمعية العامة . ولكن الحكومة لم تكن مستعدة لوقف الأعمال الحربية إلا بشرط : (١) أن يوافق المصريون والإسرائيليون على تكوين قوة تابعة للأمم المتحدة تحافظ على السلم (٢) وأن توافق الأمم المتحدة على

استمرار هذه القوة فى البقاء حتى يتوصل إلى إبرام اتفاق بشأن النزاع القائم حول قناة السويس وإلى الوصول إلى تسوية سلمية بين العرب وإسرائيل . (٣) وأنه حتى تتكون قوة الأمم المتحدة فإن المتنازعين يجب أن يوافقا على قبول وضع بعض قوات إنجليزية فرنسية بينهما .

ولقد سبب العمل الذى قام به إيدن صدمة لعدد كبير من الناس ووزعت كثير من الكتيبات ولصقت الإعلانات وعقدت الاجتماعات ولقد انهالت البرقيات التى تعبر عن سخطها على « داوننج ستريت » وأرسلت البرقيات والرسائل إلى رئيس الوزراء من الجامعات والمدارس والمصانع والمؤسسات التى عقدت يومى الخميس والجمعة اجتماعات للاحتجاج وحاولت الحكومة فرض الرقابة على الإذاعة البريطانية . وفى مساء السبت ألقى إيدن خطاباً عن طريق الإذاعة والتليفزيون على الأمة عرض فيه القضية وطلب المستر جيتسكل أن يرد على ذلك فى اليوم التالى وفى ذلك الوقت أشارت كل الصحف ذات النفوذ فى البلاد إلى بلاهة العمل الذى قام به إيدن . وفى يوم الأحد أتيحت الفرصة لإيدن أن يعرف الشعور الشعبى ضده فقد عقد اجتماع هائل فى ميدان الطرف الأغر وهاجم فيه المتحدثون العمال الحكومة وكانت الهتافات ضده .

« ليذهب إيدن أو يستقل » لقد كانت أكبر مظاهر سياسية شديدة فى بريطانيا منذ سنوات ١٩٣٠ وما بعدها ولقد حاول ٧٠٠ كونستابل وقوة من ٦٠ من رجال البوليس الذين يركبون الخيل رد الجمهرة مدة ٤ ساعات لحماية مقر الحكومة فى داوننج ستريت . وفى الداخل كان إيدن ومجلس

وزرائه يناقشون الموقف العسكرى فى جو ملؤه الهستيريا . وكان معهم فى الداخل أيضاً مسيو بينو ومسيو بورجيه مونورى وأسفرت المظاهرة عن جرح حوالى ٤٠ مواطناً و ٦ من رجال البوليس .

ولكن ماذا كان يجرى فى مصر ؟ لقد كان من المنتظر أن يهبط رجال الباراشوت الإنجليز والفرنسيون فى منطقة قناة السويس فور انتهاء مدة الإنذار ولكنهم فشلوا فى القيام بهذا ، وفى يوم الخميس والجمعة أعلن وزير الدفاع الفرنسى أن قوة عسكرية على وشك النزول . ولكن من الواضح أنها لم تفعل ذلك .

ولم يحدث أى شىء أقل من انهيار الخطة الإنجليزية الفرنسية العسكرية السياسية ، وأبلغ كيتلى أن يقوم باتخاذ خطة تهدف إلى احتلال منطقة القناة وقد فعل ذلك ولكن يبدو أنه لم يعرف فى أى الظروف السياسية سيتم تنفيذ هذه الخطة ، وفى يوم ٢٧ أكتوبر صدرت الأوامر إلى كيتلى بأن يقدم يوم التنفيذ سبعة أيام ، وقد بوغت بذلك إلا أنه بدأ يعمل فى طاعة عسكرية .

بل تصوروا مدى دهشته عندئذ عند ما علم أن بارجوت لم يعلم بتقديم موعد الهجوم فحسب بل إنه بناء على التعليمات التى صدرت إليه من باريس أرسل وحدة من الوحدات الجوية إلى إسرائيل للعمل فى خدمة القوات الإسرائيلية ، وابتداء من هذه الصدمة منذ البداية لم تعد العلاقات بين قائدى الحلفاء إلى مجراها الطبيعى إطلاقاً .

أما فى لندن فكانت هناك خلافات أوسع واضطراب أعم كان هناك

طريقان للاستيلاء على منطقة من القناة : الأول عن طريق هجوم عام مفاجئ من الجو يتبعه نزول رجال الباراشوت ، والثانى عن طريق الهجوم الذى يستمر أياماً عدة وفيه يقضى على القوة الحربية المصرية قبل نزول قوات الحلفاء . وميزة الأولى أنها سريعة ، أما الثانية فإنها تحمى القناة من فادح الإصابات . واعتماداً على تقارير الصحف يبدو أن القرار بشأن اختيار أى الطريقين لم يتخذ قبل إرسال الإنذار . وكان كيتلى ينتظر تعليمات لندن وفى لندن كان بتلر يخبر الوزارة بأنه لا يمكن الموافقة على غزو مصر إذا لم يكن من المؤكد أن العملية ستتم بأقل خسارة ممكنة فى الأرواح . وفى النهاية وافق بتلر بشرط أن يطير وزير الدفاع البريطانى إلى قبرص ويتأكد بنفسه من أن العملية ستكون نظيفة وقصيرة الأجل وأنها ستتم فى شئ من الرحمة ، وقد قام وزير الدفاع بذلك واستقل طائرة من طراز « كانبرا » تعطلت وهى فى طريقها إلى قبرص وبذلك استغرقت رحلته ٤٨ ساعة بدلا من المدة التى كان من المفروض أن تستغرقها هذه الرحلة وهى ١٥ ساعة وفى تلك الأثناء كانت العملية بأسرها معلقة وكانت الأسئلة تنهال على إيدن فى لندن بينما كان جى موليه وبينو منهمكين فى باريس ويواجهان موجة من الريبة والشكوك فى الجمعية الوطنية وتردد عليهما بورجيه مونورى مستفسراً عما كان يدور فى هذا الشأن .

وأخيراً صدرت الأوامر ببدء الهجوم ولكن بتلر استمر فى رفضه حتى يتأكد من أن السلاح الجوى المصرى — وقد قيل له إنه سلاح خطير — قد قضى عليه تماماً . وفى هذا الوقت انتابت الفرنسيين موجة من الاضطراب

إذ أن ضغط الرأى العالمى كان يتزايد وتراءى لهم أن الساعات تفلت بسرعة وبدأ مونورى يصدر البلاغات عن طريق وزارته وهو يأمل أن يضغط على البريطانيين بهذه الطريقة . وفى صباح السبت نفد صبر الفرنسيين وطار بينو إلى لندن مستخدماً نفوذه الشخصى للتأثير على الوزارة البريطانية ولكنه لم ينجح فى ذلك إلا أن بورجيه مونورى أساء فهم بينو أثناء مكالمة بالتليفون وظن أن الأخير نجح فى إقناع البريطانيين وأصدر الفرنسيون بلاغاً خاطفاً مرة أخرى ولكنه أدرك خطأه فى نفس الليلة عند ما عاد بينو إلى باريس . وفى صباح اليوم التالى طار الاثنان إلى لندن ونجحا هذه المرة فى إقناع المترددين فى الوزارة البريطانية : والحقيقة أنه بمجرد أن صدر القرار بإنزال الجنود (يوم الاثنين) قام ١٠,٠٠٠ شخص بمظاهرة فى هوايت هول : وظل بينو وبورجيه مونورى — محاصرين من المتظاهرين مدة أربع ساعات من جانب وكان المتظاهرون يهتفون بسقوط إيدن . . . وبالرغم من ذلك فقد نجحا فى مهمتهما ففى اليوم التالى هبط ٣,٠٠٠ من جنود المظلات البريطانيين والفرنسيين فى بورسعيد وجوارها .

ولكن الحكومة البريطانية كانت قد تلقت أول تلميح بحلول الكارثة ولم يكن من المتوقع أن يتحول إيدن من رئيس وزراء فى زمن السلم إلى رئيس وزراء فى وقت الحرب دون دفع الثمن . وكما تقول صحيفة « الميرور » فإن مستشاريه قد أخبروه بأنهم إذا أمدوا بالعتاد والرجال بما يلائم الغرض المنشود فإنهم سيستولون على القناة قبل أن يكون لدى المصريين الوقت الكافى لسدها .

وذكر هؤلاء المستشارون أن المصريين كانت لديهم بالطبع سفن معدة لغلق القناة . ولكن مواقع هذه السفن كانت قد حددت على الخرائط وصورت من الجو وأنه يمكن تحطيم هذه السفن قبل أن يتمكن المصريون من تحريكها إلى المواقع المعدة لسد القناة وقد صدق إيدن ذلك متناسياً حكمة لويد جورج واستند إيدن فى تفكيره إلى أن الجنرال كيتلى كان قد باشر عمله فى مصر سنين عديدة وتغلب مبدأ المحافظين الذى يقول بأن التجربة أفضل من الذكاء مما أدى إلى نتائج مفجعة . وفى صباح يوم الأحد بدأت تصل أنباء نتائج الإجراء ، وكما قال مستر واتكنسون فى مجلس العموم فيما بعد إنه كان يجب الافتراض حينذاك أن أربع سفن قد أغرقت فى قاع القناة وفى المساء زاد العدد إلى ست واستمر فى الازدياد طوال الأسبوع ازدياداً مضطرداً .

وفى يوم الاثنين تلقى إيدن الأنباء المؤلمة التى تقول إن القناة قد سدت من بورسعيد إلى السويس وإن إزالة العقبات تستغرق عدة شهور . بل لم يكن هذا هو كل ما فى الأمر فقد افترض إيدن بناء على التقارير الواردة من العراق أن المحاولات لتخريب أنابيب البترول لا يمكن أن تؤخذ مأخذ الجد بعد أن اتخذت الاحتياطات العسكرية ، ولقد حذرت العراق من أنه فى حالة الاعتداء البريطانى الفرنسى على مصر فإن السوريين يمكنهم أن يحطموا بعض الأنابيب لإظهار احتجاجهم ، ولكن ليس من المسموح للسوريين أن يمسوا بأى حال المحطات الثلاث وإلا فإن العراق ستعتبر نفسها فى حالة حرب . ولقد أعطت الحكومة السورية التأكيدات من أنه

لن تمس المحطات ومن الواضح أن تلك التأكيدات قد عرفتها بريطانيا عن طريق العراق ولكن لسوء الحظ أن ما لم يدركه العراقيون تماماً هو أن الحكومة السورية لم تتحكم فى سوريا . ولكن إذا كان الجيش السورى مسئولا فهو مسئول أمام موسكو (١) وماكادت بريطانيا تبدأ فى ضرب مصر حتى أسرع سلاح المهندسين السورى إلى محاصرة المحطات ونسفها . وكان من المستطاع إصلاح الأنابيب فى مدة أيام قليلة ولكن قدر للمحطات أنه لا يمكن إعادة بنائها فى أقل من سنة إذا فرض أن السوريين سيسمحون لنا بذلك . . .

ولقد تلقى إيدن ذلك النبأ يوم الاثنين وتبعه ذلك نص البيان الذى أصدرته المملكة العربية السعودية بأنها قطعت علاقاتها مع بريطانيا وفرنسا وأنه لن يباع الزيت السعودى للبلدين حتى صدور إعلان آخر . ولقد حرمت بريطانيا من ثلثى بترول الشرق الأوسط إذ سدت القناة ودمرت الأنابيب ومنع بترول السعودية .

ومن هذه اللحظة أصبحت بريطانيا سجينة أمريكا اقتصادياً، ولا يبدو أن أيزنهاور فى صورته الحالية المكتئبة سيكون سجاناً مناسباً .

ومجمل القول أن إيدن قد رمى صباح الا ثنين بالبقية الباقية من استقلال بريطانيا وضحى بحرية العمل القومية ولو للأشهر القادمة . . .

وماذا كانت حالة الجبهة الداخلية ؟

لقد استمر حزب العمال فى تكرار هجماته العنيفة بلا هوادة عاملا

---

(١) هذه مزاعم الاستعمار والصهيونيه « المراجع »

على التفرقة - واضطر الوزراء الى الحضور دائماً فى مقاعدهم الأمامية فى المجلس وواجهوا سيلاً من الأسئلة المحرجة ، وعمل قادة حزب العمال كوحدة على مهاجمة وتحطيم المبادئ الأساسية للحكومة تحت قيادة جيتسكل البارعة .

وظل إيدن محافظاً على هدوء أشبه بالحذر ، ولكن ما كاد يأتى يوم الاثنين ، حتى بدت على زملائه مظاهر التوتر .

ولقد صدم ربع المحافظين بأنباء الإنذار المباغت ، وعقدت الاجتماعات أثناء عطلة نهاية الأسبوع بتوجيه وولتر إليوث وليونيل هيلد ولكن كانوا فى مأزق مخيف . فقد بنى حزب المحافظين على مبادئ ثابتة وعمل زعماء الحزب أنفسهم بمعظم هذه المبادئ . . وكان فى القمة مبدأ الولاء ، وكان موقف بعض الثائرين صعباً للغاية . وانتشرت استقالة مستر أنتونى ناتنج فى داونج ستريت وقد أرسلت هذه الاستقالة عقب تسلم الإنذار . ولقد هاجم الثائرون إيدن علانية . ومن الواضح أنه قد لعب بكل ورقة فى يده . ولقد تبعت استقالة ناتنج استقالة سير أدوارد بويل . وقد عرف بويل بأنه الشخص الذى يعرف المشاكل الاقتصادية الحقيقية . ولقد فسرت استقالة بويل بأن الحكومة ستقع فى مآزق اقتصادية خطيرة وهو لا يريد أن يكون مسئولا . ولقد تذبذبت المعركة فى مجلس العموم يوم الاثنين ووافقت مصر على وقف إطلاق النار على شريطة أن يوافق المتحاربون . وجاءت الأنباء أن إسرائيل قد وافقت على وقف إطلاق النار فإن الجيش المصرى قد قضى عليه فى سيناء أو هو فى

طريقه إلى الهروب ، كما أن معداته قد تم الاستيلاء عليها أما وقد وافق المتحاربان الأصليان على وقف إطلاق النار فماذا كان يعمل البريطانيون والفرنسيون ؟ فى الحقيقة كانوا ينزلون رجال الباراشوت فى بور سعيد وابتدأت العملية بعد الساعة الخامسة صباحاً . أى أنهم يقومون بغزو مصر لفصل المتحاربين الذين وافقوا على وقف القتال ! ! ولقد كانت هناك أنباء سيئة أتت من نيويورك فلقد تقدمت كندا باقتراح فى الجمعية العامة تطالب فيه لسكرتير العام بأن يقدم فى خلال ٤٨ ساعة بعض الخطط لإنشاء بوليس تابع للأمم المتحدة لضمان ولمراقبة وقف الأعمال العدوانية طبقاً لقرار الجمعية لعامة لوقف إطلاق النار الصادر فى ٢ نوفمبر . ولقد فاز ذلك بـ ٥٨ صوتاً مقابل لا شىء وقد امتنع عن التصويت ١٩ بما فيهم بريطانيا وفرنسا . ولم امتنعت بريطانيا عن التصويت ؟ ألم يكن عدم وجود قوة دولية هو الحجة الأساسية لتدخلها ؟

ومع ذلك ففى الساعة ٣,٣٠ نهض سلوين لويد وأعلن أن الحكومتين البريطانية والفرنسية قد أبرقتا إلى الأمم المتحدة واضعتين شروطاً معينة لقبولهما البوليس التابع للأمم المتحدة . وقبل بيان لويد وجه مستر كولينز نظره إلى ذلك المنشور الذى أسقطه السلاح الجوى على مصر وجاء فيه « إن لدينا القوة وسنستخدمها إذا لم تستسلموا » وصرح لويد وقد اعتراه اليأس أنه يريد أن يرى نسخة منه قبل التعقيب عليه . وهنا نهض مستر بيفان.

مستر بيفان : لقد استمعت إلى المذياع فى الليلة الماضية وسمعت ما احتواه المنشور وسيسمعه أفراد الشعب البريطانى . أليس من المدهش ألا

يعرف وزير الخارجية ما كتب فى المنشور ؟ أهو بموافقة وزارة الخارجية أم بموافقة رئيس الوزراء أو هذه هى اللغة التى استخدمها الجنود ؟ . . .

مستر لويد : لقد ذكرت أنى لا أعرف ما كتب فى المنشور . . .

مستر بيفان : ولِمَ لا ؟

مستر لويد : . . . ولكنى سأنظر فى الأمر بالتأكيد .

مستر بيفان : أليس هذا دليلا ملحوظاً على سوء الإدارة ؟

وقبل أن يقرأ لويد البيان حصل مستر ويد جوود بن من وزارة الخارجية على نص الإذاعة الموجهة إلى مصر من راديو قبرص فى الساعة الخامسة صباحاً . وقد قرأها على المجلس :

« وهذا يعنى أننا سنضطر إلى أن نضربكم بالقنابل حيثما تكونون . ولتتخيلوا قراكم وقد ضربت بالقنابل ، ولتتخيلوا زوجاتكم وأطفالكم وأمهاتكم وآباءكم وهم يفرون من ديارهم تاركين أمتعتهم وراءهم . وهذا سيحدث لكم عندما تختبئون وراء نسائكم فى القرى . . . إنكم ما لم تجلوا فلن يكون هناك أى شك فى أن دياركم ستدمر . لقد ارتكبتم خطيئة . . . وهى أنكم وضعتم ثقتكم فى عبد الناصر » .

وهكذا ظهرت بجلاء ووضوح النية الحقيقية للتدخل الإنجليزى الفرنسى — ألا وهو الإطاحة بحكومة عبد الناصر .

واستطرد ود جوود بن يقول : نظراً لأننى تسلمت هذا النص من وزارة الخارجية صباح اليوم هل يمكن لوزير الخارجية أن يتحمل مسئوليته ويفسر ما إذا كان هذا النص نابعاً من سياسة حكومة جلالة الملكة ؟

مستر لويد : ليس لدى أية معلومات عن هذه الإذاعة ؟

وهنا قامت ضجة فى المجلس وحاول ما يقرب من ستين من أعضاء المجلس التحدث فى وقت واحد .

وقام مستر بيفان مرة أخرى وقال :

مستر بيفان : لم نقم بذلك العمل العسكرى لفصل القوات المصرية والإسرائيلية ولكن لإعلان الحرب ضد الحكومة المصرية فى صورة وحشية.. فهلا أوقفت الحكومة الأكاذيب التى تبثها فى مجلس العموم ؟

وهنا دخل إيدن إلى المجلس ومعه خبر أنقذ لويد من الحرج وهو أن مقر القيادة فى قبرص أورد البرقية التالية :

« إن القائد العسكرى وحاكم بور سعيد يناقشان بعض الشروط مع البريجادير بتلر وصدرت الأوامر بوقف إطلاق النار » .

ولم يعلم أحد إن كان هذا وقفاً لإطلاق النار محلياً أو بصفة عامة فإن إيدن لم يوضح ذلك ولكن بالنسبة لحزب المحافظين كان هذا أول أنباء بالانتصار وأول شعاع من الضوء يتخلل نهاية ممر مظلم كئيب . ووقف المحافظون يتصايحون ويلوحون بأيديهم وهنا بدا أن الحكومة قد أنقذت نفسها بادعاء إحراز نجاح حربى سريع ولم يشارك مراسلو الحرب فى قبرص القوات فى هذه البهجة . فقد كانوا يعرفون أكثر قليلا مما يعرفه العضو العادى فى المجلس ولم يكن ليسمح لهم بإرسال شىء مما يعرفونه إلى صحبهم ولقد كانت الرقابة العسكرية البريطانية فى قبرص شديدة للغاية فقد كانت تقرأ البرقيات بكل عناية ودقة فاقت أيام الحرب وفاقت ما

يحدث وراء الستار الحديدى .ولم يعرف أحد من المراسلين كيف يشير إلى العمليات أتكون حرباً أم تدخلا مسلحاً أو عملا بوليسياً ؟ إن الرقيب نفسه لم يكن يعرف كيف يسمى هذا التدخل . . .

وكان كيتلى يدلى بتصريحاته التى كانت تعد من قبل ثم تطبع على الرونيو وتوزع على المراسلين . ولقد استخدم كيتلى هذه الجملة « إننا فى حالة حرب محدودة مع مصر » ولقد سئل فى الحال عما إذا كان مسموحاً للمراسلين أن يستخدموا هذه الجملة للإشارة إلى العمليات فقال كيتلى إنه لم يصرح بمثل هذه الجملة . وبعد ذلك سحبت النسخ المطبوعة على الرونيو لتصحح وصودرت التسجيلات . وهذه الحادثة توضح العداء القائم بين القواد العسكريين والمراسلين الحربيين . ولقد تحقق المراسلون أن هناك بعض الأخطاء فى رسم الخطة وهدفها السياسى وطريقة تنفيذها ، وهكذا شكوا كثيراً فى أنباء وقف إطلاق النار ، وتبين خلال يوم الاثنين أن وقف إطلاق النار لم يكن إلا فى منطقة محدودة وفى فجر اليوم التالى أعلن أن المصريين قد رفضوا شروط التسليم حتى فى بور سعيد نفسها ــ وبدأ القتال يزداد عنفاً .

ولكن فى ذلك الوقت ــ صباح يوم الثلاثاء ــ صدر تصريح طغى على الحوادث فى بور سعيد وكان تصريحاً ذا أهمية كبرى فاتخذت الأزمة شكلا جديداً فقد أصدر بولجانين فى وقت متأخر من مساء يوم الاثنين إنذاراً بتدخل روسيا .

الفصل التاسع

الأزمة العالمية

فى مساء يوم الاثنين ٥ نوفمبر تسلم السير وليم هايتر «William Hayter» لسفير البريطانى فى موسكو مذكرة لإبلاغها إلى السير أنطونى إيدن من وزير الخارجية السوفيتية وقد أعلنت محتوياتها بعد ذلك فوراً فى مؤتمر صحفى دعى على عجل ، وهذا نص المذكرة :

« ترى الحكومة السوفيتية ضرورة إلفات نظركم إلى الحرب العدوانية المشبوبة على مصر من بريطانيا وفرنسا ولها أخطر العواقب على قضية السلام . . ما هو المركز الذى تجد بريطانيا نفسها فيه لو أنها هوجمت من دولة أقوى تمتلك كل نوع من الأسلحة الحديثة المدمرة ؟ إن هناك الآن دولاً ليست فى حاجة إلى إرسال أساطيل بحرية أو جوية إلى شواطىء بريطانيا ولكنها تستطيع استخدام وسائل أخرى مثل الصواريخ الموجهة » .

« نحن عازمون عزماً أكيداً على سحق المعتدين وإقرار السلام فى الشرق الأوسط باستخدام القوة ونحن نأمل فى هذه اللحظة الحرجة أن تستعملوا الحكمة المناسبة وتستخلصوا النتائج المترتبة على هذا » .

وقد كان هذا إنذاراً يكاد يكون معادلا لبلاغ نهائى صيغ فى أعنف أسلوب يهدد بقذف بريطانيا بالقذائف الموجهة بعيدة المدى المزودة بالقنابل

الذرية . وكان تأييداً لتحذير أنورين بيفان الذى سلم فى اليوم السابق والذى جاء فيه « إذا كانت الحكومة تريد إعادة فرض " قانون الغابة " فيجب عليها أن تذكر أن بريطانيا وفرنسا ليستا أقوى الحيوانات فى الغابة فهناك حيوانات أشد خطراً بكثير تتحرش بها » .

بيد أن التدخل السوفييتى الذى غير وضع الأزمة ولأول مرة كشف عن الاحتمال الرهيب لنشوب حرب عالمية ثالثة جاء صدمة لإيدن لأنه لم يكن يتوقعه بل على العكس يبدو أنه كان قد أوضح وأكد مراراً للوزارة أنه لن يحدث . فلماذا ؟

لكى نقف على السبب يجب أن نعود إلى أبريل عند ما زار بريطانيا بولجانين وخروشتشيف وكانا فى سبتمبر السابق قد استهلا سياستهما الجديدة للشرق الأوسط بتصدير أسلحة الستار الحديدى إلى مصر وسوريا والتدخل المنظم بدون استشعار المسئولية فيما كان من قبل من الاختصاصات البريطانية بصفة أساسية . وكان من المعروف قبل ذلك أن الموضوع الأساسى فى المباحثات أثناء زيارتهما سيكون الشرق الأوسط . غير أنه قبل حدوث الزيارة بشهر واحد طرأت على سياستهما فى المنطقة علامات تحول. ويبدو أن من الجائز أن تزايد التوتر على الحدود الإسرائيلية الذى كان يهدد بتجدد القتال قد راع الزعماء السوفييت ويجوز أنهما شعرا بأنه إذا نشبت الحرب كان من الصعب على روسيا السوفيتية أن تظل خارج الميدان . وفى نفس الوقت كانا قد شرعا فى سياستهما الداخلية الجديدة التى ترمى إلى التجرد من المذاهب الستالينية وكانت تجربة دقيقة خطيرة يعتمد نجاحها

على قدرتهما على المحافظة على الاستقرار الدولى .

وعلى كل حال نشرا قبل وصولهما إلى بريطانيا بعشرة أيام بياناً مسهباً عن الشرق الأوسط يدعو إلى حظر تصدير الأسلحة بصفة عامة . وكانت هذه أول خطوة فيها ترضية منذ شهر سبتمبر وأول أشارة منهما إلى أنهما مستعدان للقيام بدور إيجابى يستشعر المسئولية فى الشرق الأوسط . .

وفى هذا الجو بدأت المحادثات فى داوننج ستريت وبعدها أعلن السير أنطونى إيدن رضاءه عما وقف عليه فى تلك المحادثات ولا داعى للشك فى قوله هذا . بل الأمر على النقيض لأنه مع عدم نشر تفاصيل المحادثات فقد تكشفت فيها عدة أمور. وقد ساد الاعتقاد فى ذاك الوقت بأن السير أنطونى إيدن قد توصل إلى ما يمكن أن يطلق عليه « اتفاق الجنتلمان » مع زواره فيما يتعلق بالشرق الأوسط . فقد ذكر أن السير أنطونى إيدن أخبرهما بأن اعتماد بريطانيا على بترول الشرق الأوسط وصل إلى حد يجعل كل محاولة مباشرة أو غير مباشرة للتدخل فى هذه الموارد تعده بريطانيا تهديداً لأهم مصالحها القومية وتواجهه على هذا الاعتبار . ويظهر أن خروشتشيف قبل هذا الرأى وأكد للسير أنطونى أن روسيا تعتبر الشرق الأوسط منطقة مصالح غربية بصفة أساسية ، تكون فيها لبريطانيا حرية العمل ولو إلى حد محدود وقال إن روسيا لن تكف عن دعايتها ضد الاستعمار البريطانى ولكنها لن تمنع بريطانيا من حماية مصالحها فى المنطقة إذا هددت تلك المصالح .

وقد فسر ذلك إيدن — إن خطأ أو صواباً — على أن روسيا مستعدة لأن

تمنحنا « تفويضاً مطلقاً » للتصرف مع الدول العربية العنيدة التى تهدد مصالحنا البترولية أو يبدو على روسيا أنها مستعدة لذلك. ومثلا إذا تحرش عبد الناصر ببريطانيا يمكنها أن تتصرف معه دون خشية التدخل الروسى . ذلك ما فسر به إيدن تلك المحادثات ولاشك أن هذا ما ذكره للوزراء . وقد ظل يؤكد للوزراء فى جميع مراحل الأزمة أن روسيا لن تتدخل — إلا فى نطاق الدعاية — مهما فعلنا .

فهل كان إيدن مخبولا ليصدق وعد خروشتشيف ؟ يصعب الحكم على ذلك . فربما كان خروشتشيف يعنى ما قاله فى شهر أبريل. ولكن فى نهاية أكتوبر كان له رأى آخر فقد واجه هو وزملاؤه فى الكرملين تهديداً حقيقيا متزايداً لنظامهم بأجمعه وبناء على ذلك تغيرت وجهة نظرهم فى الشئون الدولية من أساسها .

والواقع أنه فى أكتوبر كانت مشروعات التجرد من الستالينية قد اكتسحت وانهارت تلك الحركة التى بدأت بعد وفاة ستالين بقليل ونمت بالتدريج فى هدوء وأحرزت حداً من النجاح وشعر الزعماء السوفييت فى المؤتمر العشرين للحزب الشيوعى السوفييتى (يناير ١٩٥٦) أنهم يستطيعون الكشف عنها رسميا . وبذلك اعتبر المؤتمر دعوة للدول التابعة للسوفييت باتخاذ نفس السياسة فى نظام حكم كل منها . فأزيل البوليس السرى المركزى المهيمن على السياسة (التابع للكومنفورم) . ولكن إمبراطورية ستالين بعد أن حذفت منها هذه السيطرة بدأت تعانى ظهور عناصر قوية من الديموقراطيين الاشتراكيين الذين يرفضون الشيوعية الصارخة كما ظهرت الكراهية العنيفة ضد روسيا .

وهذه المتاعب نشأت للسوفييت بسبب خطأ فى التكتيك فقد خيل إليهم أنه يمكنهم استحداث سياسة جديدة فى الدول التابعة مع استمرار وجود لشخصيات التى أوجدها النظام القديم وكان من الخطأ تصوير إمكان تغيير المبادئ دون الأشخاص .

وقد حذرهم تيتو من ذلك عندما زار روسيا فى شهر مارس وفى يالتا فى شهر أكتوبر .

وتجاهل الروس تحذيرات تيتو وبذلك بدأوا يواجهون متاعب منذ شهر يونية فى بلاد أوروبا الشرقية والبلقان من جراء الثورة المتزايدة باستمرار — وتركزت المتاعب فى الدولتين اللتين كانتا أقل انصياعاً لسيطرة روسيا وهما بولندة والمجر وكانت أول هزة فى بولندة فقد فاق التذمر الدرجة التى يمكن للزعماء ضبطها فى شهر يوليو واضطروا للخضوع تدريجيا للمطالب الشعبية واضطر فى النهاية روكوسوفسكى لاتخاذ خطة الدفاع وأطلق سراح جومولكا (الذى سجن فى ١٩٤٧) وأعيد قيده فى الحزب الشيوعى فى ١٩ أكتوبر وانتخب فى اللجنة المركزية للحزب الشيوعى البولندى تحت ضغط الخاصة والعامة من أعضاء الحزب وتولى الزعامة منذ أول اجتماع اشترك فيه وانسحب روكوسوفسكى .

وبعد عدة ساعات فوجىء العالم بهبوط الزعماء الروس من الطائرة فى وارسو وكانوا خروشتشيف وزوكوف ومولوتوف وكونيف وميكويان واقتحموا قاعة اجتماع اللجنة المركزية ولكن هذا التدخل أخفق فى تحويل مجرى الحوادث .

وتحركت القوات الروسية إلى وارسو ولكن جومولكا أبلغ الزعماء الروس أنه إذا هجم الجيش الروسى قاومه الجيش البولندى . وأكد لهم أن بولندة لن تخرج من حلف وارسو وأن الحزب الشيوعى البولندى سيبقى فى الحكم . ورضى خروشتشيف وزملاؤه بهذه التأكيدات وتراجعوا بوقار إلى موسكو وعادت القوات الروسية إلى قواعدها .

وانتهت أزمة بولندة بينما كانت أزمة المجر آخذة فى الظهور.

فقد جاءت أخبار مظاهرات الطلبة منذ أغسطس إلى الدول الغربية من بودابست وتزايدت تلك المظاهرات فى حدتها طيلة شهر سبتمبر وعند ما وصلت أخبار بولندة إلى العاصمة المجرية خرجت المظاهرات الصاخبة فى الشوارع . وكان الروس قد سعوا فى المجر للاحتفاظ بصنائعهم كما فعلوا فى بولندة . ولكنهم اضطروا فى سبتمبر إلى التخلى عن راكوزى الذى هرب إلى موسكو .

ولكن خليفته جيرو كان أيضاً من أتباع ستالين المشهورين وكان موضع كراهية الشعب المرة .

وفى ٢٣ أكتوبر أفلتت مظاهرة شعبية كبيرة ببودابست من السيطرة وارتكب جيرو غلطة قاتلة إذ استنجد بالقوات الروسية المرابطة على مقربة من العاصمة لتشتيت المتظاهرين بالقوة ففعلت ذلك وبدأ القتال فى تلك اللحظة وأخذ يزداد عنفاً وانضمت وحدات الجيش المجرى إلى الثوار ووزعت الأسلحة وجاءت قوات روسية أخرى للاشتراك فى معارك الشوارع التى شملت مدناً أخرى فى ٢٥ أكتوبر وجاءت قوات أخرى من الدبابات

الروسية إلى المجر من الشمال ومن الشرق . وتشكلت فى المصانع لجان من العمال وأنشئت (حكومات ثورية) فى مختلف المديريات .

وفى ٢٦ أكتوبر استسلم جيرو وهرب إلى روسيا وطلب من إمرى ناجى (على مذهب تيتو) أن يؤلف الحكومة . وهنا يظهر الفارق بين بولندة والمجر لأن فى بولندة صفاً من القادة الوطنيين وراء الخط الأول الشيوعى ليسوا موصوفين بالخيانة أما فى المجر فلم يكن مثل هذا الصف الثانى له وجود لأنهم جميعاً قتلوا . وعجز ناجى عن المهمة الموكولة إليه فطغت الثورة عليه . فكلما زاد طلبه للدبابات السوفيتية وزادت نداءاته إلى الشعب بإيقاف إطلاق النار اشتد القتال . وفى ٢٨ أكتوبر تبين أنه أسير فى قبضة القوات التى لا تقبل التسليم والتى تحتل غرب المجر وأسست حكومة مؤقتة فيها يسيطر عليها الديمقراطيون الاشتراكيون أمثال جيور « Gyor » . وقد بدأ فى مفاوضة الروس لسحب قواتهم . وفى ٣١ أكتوبر شرع الروس يسحبون دباباتهم من بودابست وشكل ناجى حكومة جديدة تضم الديمقراطيين الاشتراكيين وأعلن حياد المجر وانسحابها من حلف وارسو ووعد بإجراء انتخابات حرة وأطلقت القوات الثورية سراح الكردينال منلزنتى « Mindszenty » فعاد ظافراً إلى بودابست .

وفى هذه الأثناء كانت محاولات حادة عنيفة تدور فى الكرملين وكان بعض الزعماء السوفييت قد طاروا خلال الثورة إلى بودابست للاطلاع على الحالة وانقسموا على أنفسهم وكان أتباع ستالين وعلى رأسهم مولوتوف وسوسلوف وكاجانوفتش يريدون إعادة الحكم الروسى بالقوة وأما ميكويان

وخروشتشيف فكانا يحبذان سحب القوات الروسية وكانا يرضيان عن الحياد المجرى ولديهما توكيدات من واشنطون ولندن بأن الغرب لن يسعى إلى جر المجر للانضمام إلى الكتلة الغربية .

واستمرت المناقشات يومى ٢٨ و ٢٩ وكان يبدو فى يوم الاثنين أن جناح المتساهلين سيكسب المعركة وبدأت القوات الروسية فى الانسحاب فى اليوم التالى وأعلنت موسكو أن حلف وارسو سيجتمع فى القريب العاجل وظنوا هنا أنه سيعاد النظر فى الحلف . ثم ظهر فى يوم الاثنين مساء الإنذار النهائى من بريطانيا وفرنسا لمصر وجاءت يوم الثلاثاء أخبار إلقاء الحلفاء لقنابلهم .

وكان قد نسب فى ذلك الوقت — بالرغم من نفى أنصار الحكومة — أن التدخل الإنجليزى الفرنسى هو الذى عجل بقرار روسيا بالعودة إلى احتلال المجر بالقوة وقد جاء فى المناقشات التى دارت فى الكرملين أن إلقاء القنابل البريطانية الفرنسية رجح كفة الالتجاء إلى القوة . ولا شك أنه لو لم يكن قد حدث عدوان بريطانيا وفرنسا على مصر لكانت المذابح التى جرت فى المجر قد ألحقت ضرراً كبيراً بسمعة الشيوعية فى العالم . وهناك دلائل على أن القدوة التى سبقنا إليها شجعت الزعماء السوفييت على اتباع الطريقة التى اتخذوها . ولكن بعد أسبوعين ذكر خروشتشيف للدبلوماسيين الغربيين فى حفلة استقبال بموسكو أن تدخل الحلفاء أزعجه وأدهشه ويجوز أن يكون صادقاً فيا قال .

وكان من أهم نواحى سياسة التساهل الجديدة (الروسية) نظرة جديدة

إلى حقيقة نيات الدول الرأسمالية والاستعمارية ويظهر أن النكسة الإنجليزية الفرنسية قد أدهشت خروشتشيف وأضعفت مركزه فى مناقشات المجلس السوفييتى وبذلك يمكن التدليل على أن عملنا زعزع مركز الجناح المتساهل فى الكرملين وبذلك ساعد أنصار ستالين على الفوز . وفى يوم الجمعة كان قرار احتلال المجر قد صدر وتدفقت الدبابات إليها فى صباح السبت وبدأ الهجوم على بودابست يوم الأحد .

وبعد أن قرر زعماء السوفييت احتلال المجر بالقوة كان من اللازم أن يفعلوا شيئاً يدارون به موقفهم . وبديهى أن قرار التدخل فى مصر كان الفرصة الملائمة وحسب الروس حساب أن الآسيويين والأفريقيين على الأقل يرون غزو مصر أشنع من العودة إلى احتلال المجر وإذا هبت روسيا لمساعدة مصر طهرت نفسها من إثم المجر وقد أثبتت الحوادث صدق حسابهم ومع ما فى تصريح نهرو عن ازدواج الحكم « بالنسبة لمصر والمجر » من النفاق وعدم الأمانة فهو ولا شك صورة من الرأى السائد بين الآسيويين (ومما يلاحظ بالسخرية أن الصين الشعبية هى الدولة الوحيدة التى اعتبرت قمع المجر أشنع من غزو مصر) .

وقد تحول النزاع بالشرق الأوسط إلى أزمة عالمية بواسطة التدخل الروسى فى صباح الثلاثاء ٦ نوفمبر أصبح احتمال نشوب حرب عالمية ثالثة احتمالا قريباً وكان رد الفعل الأمريكى سريعاً فقد رفض أيزنهاور مذكرة بولجانين بشدة وهى التى كانت تقترح تدخل روسيا وأمريكا معاً لوقف القتال وأوضح أيزنهاور أن ضرب بريطانيا وفرنسا بالصواريخ سيستتبع قصاص

أمريكا الفظيع وأصدر الجنرال جرونتر إنذاراً أقوى منه من باريس وهو قائد حلف الأطلنطى ولكن أحداً لم يكن قد أرسل إنذاراً نهائيا ولكن الجميع كانوا على وشك ذلك وأصدرت القيادة الأمريكية أمراً باتخاذ إجراءات طارئة وأبحرت حاملات الطائرات الأمريكية متجهة إلى أوربا وفى الساعة العاشرة أصدر مجلس الاتحاد السويسرى رسالة مستعجلة إلى جميع الدول الكبرى مطالباً بعقد مؤتمر للدول العظمى جاء فيه أن خطر الحرب العالمية الثالثة يرفرف على رءوس البشر وجاء فيه أيضاً أن السلام يمكن إنقاذه ويجب إنقاذه .

ووصلت الحالة فى دوانج ستريت إلى درجة الخطر فقد علم فى الساعة الثامنة صباحاً أن شروط وقف إطلاق النار التى وضعها الحلفاء قد رفضت وأن المقاومة الحربية المصرية تشتد وأن الوصول إلى السويس يتطلب أربعة أيام أخرى ولكن مصر وإسرائيل قبلتا وقف إطلاق النار ولم يكن هناك مبرر ظاهر للاستمرار فى القتال وكان ذلك رأى كتلة ذات نفوذ من المحافظين وقيل لإيدن فى صباح الثلاثاء إن حوالى ثلاثين من أنصاره سيضطرون للتصويت ضد الحكومة إذا لم تأمر بوقف إطلاق النار فى القريب العاجل وقد أوضحوا رأيهم فى خطاب وضع مشروعه فى الليلة السابقة ولكن بالنسبة لتدخل روسيا قرروا ألا يقدموه لإيدن الذى لم يكن يجهل رأيهم والواقع أنه عرف أن أحد أعضاء هذه الجماعة عرض صورة الخطاب على النواب العمال فى الليلة السابقة .

وكان ذلك أول دواعى اضطراب إيدن وكان ثانيها أشد خطراً فهو لم

يفكر فى الأيام الماضية فى موسكو ولا شك أن السفارة البريطانية فى موسكو قد أنذرته بمسلك الكرملين الذى يثير التشاؤم وبضرورة السعى لإصلاح الشقاق بين أميركا وبريطانيا ولذلك كان يجب ألا تفاجئ إيدن مذكرة بوبلجانين إلا أنه يبدو أنه فوجئ وكان طبيعياً أن تكون أول خطوة له أن يتصل تليفونياً بواشنطون ولكنه فى هذه المناسبة صدم صدمة أخرى لأن مستر هوفر القائم بأعمال وزارة الخارجية مدة وجود دلاس فى المستشفى لإجراء العملية أبلغ إيدن أن أمريكا مع تمسكها بنص ردها على مذكرة بوبلجانين لا ينبغى اعتبار أن تأييدها سيكون أتوماتيكياً إذا وصل المتطوعون السوفييت إلى الشرق وكان هوفر ولا شك يتكلم بتفويض من أيزنهاور .

ووقع إيدن الآن فى مأزق رهيب فقد صار جلياً أنه إذا استمر فى التقدم على امتداد القناة فسيحضر المتطوعون السوفييت إلى مصر بطريق الجو فى غضون ساعات قلائل وكان لا يشك فى أنه إذا حضر المتطوعون السوفييت لمساعدة مصر اضطرت أمريكا لمساعدتنا ولكنه لا يضمن ذلك ولا يستطيع أن يقول لوزرائه إن أمريكا معنا ولكنه على العكس اضطر أن يذكر أن أمريكا غيرت اتجاهها وكان هو نفسه مستعداً فى الاستمرار لأنهم إذا وقفوا فى بورسعيد كانت الحملة كلها فشلا ذريعاً ولكن هل يؤيده الآخرون . وكان سالسبورى ومكميلان لا يمكن الاعتماد عليهما وكان يعرف أن بتلر ميال بشدة إلى وقف إطلاق النار ويحتمل منذ الآن أن يكون بتلر متصلا بالمعتدلين من المحافظين ولكن هيد ولويد منغمسان مثله فى المشكلة ولا يستطيع إيدن أن يعتمد على غيرهما من

الوزراء - إلا أن قرار الاستمرار فى الحرب يجب أن يصدر من الوزارة كلها أو بأغلبيتها وكان أنصاره خارج الوزراة ينقلبون عليه، ولا شك أنه سمع فى الصباح بالخبر المشئوم من أن سير وليم هايلى رئيس تحرير التايمز سيتناول الغداء مع جيتسكل زعيم المعارضة وكان وزيران حديثان فى الوزارة قد استقالا ومن المنتظر أن يخرج وراءهما غيرهما إذا استمر القتال وكان الجميع يعلمون أن السفينة أخذت تغرق .

تلك هى الأفكار التى كانت تخطر برأس إيدن صباح يوم الثلاثاء ٦ نوفبر وقد كتب مستر مالاليو عضو مجلس العموم ومحرر نيوستيتسمان وصفاً بديعاً لرئيس الوزراء فى الساعات الأخيرة قبل صدور وقف إطلاق النار قال فيه : « قبع رئيس الوزراء على مناضد الصف الأول وقد مال برأسه إلى الوراء وفتح فمه وكانت عيناه ملتهبتين من السهاد وقد حدقتا من خلال المقاعد الخالية إلى السقف إلا أنهما كانتا تتركزان بشدة غامضة على وجه الساعة وتتجولان فيها بضع ثوان ثم ترتفعان من جديد فى الفراغ وكانت يداه تقبضان بعنف على نظارته السميكة الإطار أو تفركان فيما بينهما منديلا ولكنهما لم تسكتا أبداً وكان وجهه مغبراً فيما عدا الدوائر الداكنة التى تحيط بعينيه الذابلتين وشخصيته كلها بدت متخاذلة - إن لم تكن منهارة تماماً . لأن العبء الباهظ لاتخاذ قرارات على عهدته وحده كادت تؤدى إلى انحلال الروابط بين بريطانيا وأمريكا والكومنولث ، هذا العبء جعله غير قادر على التمييز بين النجاح والإخفاق وجعله غير قادر على تمييز بين الصدق والكذب . . . بيد أن إيدن لم يكن يستطيع أن يؤجل

القرار بعد الآن فعليه إما أن يتقدم أو يتقهقر ولا ثالث بينهما . واجتمعت الوزارة دون انقطاع طول اليوم وكان الجدول مختلطاً لأنه كان يوم افتتاح دورة البرلمان الجديدة وقد ركبت الملكة فى موكبها إلى البرلمان لإلقاء خطابها وبدأت المناقشة فى الخطاب فى الساعة ٣,١٣ بعد الظهر ولكن رئيس الوزراة لأول مرة فى التاريخ لم يكن حاضراً لسماعه واشترك عدة وزراء بينهم إيدن فى مناقشة أخرى طيلة وقت بعد الظهر فى داوننج ستريت وكانت مداولاتهم تتخللها كثير من المكالمات التليفونية المذعورة من باريس وكان موليه وبينو فى حالة هستيريا وكانا يعتقدان أنه لم يبق إلا بضع ساعات لجنى ثمرة ما دبراه وتآمرا عليه عدة أشهر وهو قلب حكومة البكباشى عبد الناصر فإن القوات المتحالفة تغلبت على المقاومة المصرية فى بورسعيد وكانت وحداتهم المتقدمة تستكشف طريق السيارات الممتد بحذاء قناة السويس ويمكن أن يصلوا فى ساعات إلى الإسماعيلية وقيل لهما إنهما لن يقابلا مقاومة جدية . لقد نجح فارس العمليات غير أنه فى تلك اللحظة بالذات عندما بدا أن النصر محقق كانت الوزارة البريطانية تتردد . وكان لابد من إلقاء كل شىء بعيداً وسيظل عبدالناصر فى الوجود وسيحتفظ بالقناة وستضيع الجزائر وستنهار حكومتهما حتما .

. ويجوز أن يكون إيدن قد وافق على دعاواهما ولكنه لم يكن قادراً على شد أزرهما وفى وقت العصر كان من الواضح جداً أن الوزارة البريطانية بجملتها ليست على استعداد للاستمرار فى الحرب تحدياً للأمم المتحدة وفى وجه التهديد بالتدخل الروسى . وقد أخذت الأصوات وهزم إيدن .

وقد أبلغ الفرنسيون الذين قد بلغوا حد الوقاحة فى تلك اللحظة أنهم يجب أن يرضخوا للقرار البريطانى . وشرع إيدن فى تحرير البيان الذى سيلقيه أمام مجلس العموم . . . ودخل المجلس بعد السادسة بقليل ووقف بعد وصوله مباشرة لإلقاء البيان فقال إن الحكومة قد تسلمت كتاباً من السكرتير العام للأمم المتحدة يبلغها فيها بأن كلا من مصر وإسرائيل وافقتا على وقف إطلاق النار ونظراً إلى اقتراح إنشاء قوة دولية وافقت بريطانيا على وقف العمليات الحربية فى منتصف الليل فتعالى الهتاف من مقاعد العمال . . ووقف أيضاً كثير من المحافظين وهتفوا ولوحوا بأوراق جدول الأعمال وكانوا بالأمس يهتفون للنصر كما ظنوا ، وها هم أولاء اليوم يهتفون للهزيمة لقد استولت عليهم الحيرة والارتباك ولكن غريزتهم قادتهم إلى الهتاف لزعيمهم وهكذا هتفوا ولكن بين صفوفهم كان البعض قد لاذ بالصمت وطووا أذرعهم على صدورهم بشكل ظاهر تلك هى جماعة السويس الذين كانوا يشرفون على أعمال الحكومة طيلة الأسبوع وقد رأوا الآن آمالهم تنهار . . وكان فى الجانب المخصص للمحافظين كثير من الغاضبين المتذمرين فى تلك الليلة . . لقد خطا ايدن أول خطوة فى طريق تحطيم حزبه . . وكانت صحافة المحافظين أيضاً فى ارتباك ، فهل تستنكر أو تحبذ ؟ وبعد ما تقدم النهار صار من الواضح أن إيدن يجب أن يستسلم ، وكتبت الافتتاحيات ثم أعيدت كتابتها وكان أحد كبار كتاب المحافظين قد أمضى معظم ساعات النهار فى مكتب التحرير وقد وصف رئيس الوزراء بقوله : « لقد كان مثل رجل يجتاز مراحل عملية تحلل » وأما الديلى

إكسبريس فقد قطعت العقدة بالسكين وتعلقت بموضوع إعلان نشرته وزارة الدفاع الفرنسية بدافع اليأس وقالت فيه إن القوات المتحالفة دخلت الإسماعيلية قبل وقف إطلاق النار . وكان من الواضح أن هذا الخبر يحتمل الشك فقد كذب فيما بعد . ولكن الديلى إكسبريس فى تلك اللحظة كانت مستعدة للتعلق بأية قشة . فى صباح اليوم التالى نشرت الجريدة بالخط العريض « الإسماعيلية فى يدنا » والواقع أن الدوريات المتحالفة الزاحفة على امتداد شاطئ القناة بلغت نقطة تبعد عن بورسعيد ٢٥ ميلا عند ما أوقفت الحرب فى منتصف الليل .

وأحرز حزب العمال النصر . لقد أوقفت الحرب . وكان الحزب قد نظم اجتماعاً فى قاعة ألبرت فى تلك الليلة للاحتجاج على غزو مصر فتحول إلى مظاهرة احتفالا بالفوز وعند ما قدم جيتسكل من مجلس العموم مباشرة ووقف على المنصة وقف المجتمعون الذين بلغ عددهم خمسة آلاف وهتفوا وأنشدوا الأغنية الدارجة « إنه لرفيق طيب مرح » ولأول مرة ألفى جيتسكل نفسه زعيماً لا منازع له على حزب موحد الصفوف . وتنوسيت المنازعات السالفة أو طرحت وغرقت الخصومات القديمة فى لجة العزم المصمم على الكفاح من أجل شرف بريطانيا ، واستعاد الحزب روحه المعروفة فى النضال إذ كسب نصراً عظيما للديمقراطية . وأمسى جيتسكل فى تلك الليلة رجلا سعيداً محظوظاً .

لقد وضعت الحرب أوزارها واجتازت الأزمة العالمية ذروتها ولم يحل عقال القنابل الذرية . وكانت تلك أفضال عظيمة ينبغى أن يعترف لها

الشعب البريطانى بالشكر . ولكن البريطانيين عند ما تفقدوا حظهم غداة وقف إطلاق النار وجدوا المستقبل مقبضاً ، لقد انقضت الليلة الجامحة المعربدة والآن بدأت قوائم الحساب ترد إلينا لنقوم بسدادها .

الفصل العاشر

الانهيار

إن التقدير الكامل لخسائر حرب السويس سواء الاقتصادية منها أم السياسية لا يمكن تحديده فى هذا الوقت المبكر وكما أشار مستر جيتسكل إن الحصاد الذى سوف نجنيه فى السنوات القادمة. هو ثمار الشر وكل ما يمكن عمله فى الوقت الحاضر هو تقدير النتائج وعلينا أن ندع الباقى للزمن والتاريخ كما أن المسألة من وجهة النظر العالمية الخالصة تعتبر جد خطيرة ، لقد بلغت نفقات العمليات الحربية نفسها تبعاً للبيان الذى أصدره ماكميلان يوم ١٣-١.١-١٩٥٦ قرابة مليون جنيه إسترلينى. وهذا يبدو رغم ذلك أقل من التقدير المضبوط والخسارة فى الإنتاج بسبب قطع أنابيب البترول التابعة لشركة البترول العراقية كما قدرت سوف تبلغ حوالى ٢٠ مليون جنيه إسترلينى فى الشهر كما أن الارتفاع فى نفقات النقل بسبب إغلاق القناة وما تسبب عنه من ارتفاع فى نسب الشحن العالمية سوف يقرب من ٤٠ مليون جنيه فى الشهر وقد قدرت مجلة الأيكونوميست أن الخسائر الإجمالية لشركات البترول البريطانية سوف تبلغ على الأقل ١٢٥٠ مليون جنيه بينما كان التأثير على احتياطياتنا من الدولارات سوف يستنزف كل ثلاثة أشهر قرابة ٥٠ مليوناً من الجنيهات وقد وصلت جريدة

التيمز فى المحاولة التى بذلتها لتقدير النفقات المالية القصيرة المدى للدولة ككل إلى رقم يتراوح بين ١٢٠ – ١٥٠ مليون جنيه وهو رقم يستند على الاعتقاد بأن حالة الطوارئ ستمتد إلى ستة شهور وهذا يعتبر بالتأكيد فرضاً مملوءاً بالتفاؤل وقد ذهبت الأيكونوميست فى تقديرها إلى القول بأن المدة التى يستغرقها تطهير القناة فى ختام مقال نشر يوم ١٧–١١–١٩٥٧ أنه من المتوقع أن تكون هذه المدة بين ٩ ، ١٢ شهراً كما أن أنابيب بترول شركة البترول العراقية سوف تستغرق مدة مماثلة لتحقيق إزالة ما بها ، هذا مع افتراض أنه لا يوجد تحطيم فى الوضع السياسى فى سوريا ولذلك فإن التأثير على ميزان الدولارات الخاص بنا سيكون خطيراً . إن تحقيق القيمة فى هذه المرحلة لا يعتبر مخرجاً لنا وقد وضع وزير التموين بالفعل مستر مودلنج « Mauding » فى بيانه الذى لقاه فى مجلس العموم يوم ١٣–١١ بأن الحكومة كانت تنوى مواجهة الطلبات الفائضة وذلك بتخفيض احتياطياتنا من الذهب والدولار هذه الاحتياطيات المنخفضة جداً بالفعل وإذا انخفضت أكثر من ذلك فإن تدهور الإسترلينى الذى سببته الأزمة قد يزيد إلى الدرجة التى لا يمكن فيها السيطرة عليه وقد يرغم الحكومة على أن تخفض العملة مع ما يصيب ذلك من آثار سيئة على الاقتصاد عموماً ومن ناحية أخرى فإن العجز فى البترول قد أجهز على التوسع الاقتصادى البريطانى وأدى إلى انخفاضه بشدة وهو الذى كان قد بدأ بضغط العملة فى خريف عام ١٩٥٥ وقد نتج عن الخسارة فى وارداتنا من البترول والتى تتراوح بين ٢٠ ، ٤٠ ٪ أن أرغمت الحكومة لا

لا على توزيع البترول بالبطاقات فحسب ولكن على قطع الإمدادات ، وفى بعض الأحوال التى تبلغ فيها النسبة ٥٠٪ على الصناعات المتولدة عن احتراق البترول وتلعب بعض هذه الصناعات وخاصة الصلب والزجاج دوراً حيويا فى تجارة التصدير ومع هذا فإنه من المستحيل تقدير الانخفاض فى الإنتاج وهو ما ينتج عن تحديد الإنتاج الصناعى ولكن هذه النسبة لن تكون بالتأكيد أقل من ٢٪ وهى نسبة شديدة الوطأة ، وبخاصة إذا أتت فى عام واحد فى الوقت الذى ظل فيه الإنتاج الصناعى البريطانى إلى درجة كبيرة ثابتاً . إن بعض القياس لورطة بريطانيا الاقتصادية واعتمادنا المتزايد أو الكلى على أمريكا يعرضه ماكميلان بمحاولاته اليائسة خلال الأسبوع الثانى من نوفمبر حين تبدأ المفاوضات مع وزارة المالية الأمريكية وهدف ماكميلان فى محاولته هذه هو الحصول على تعاون من أمريكا وبصفة خاصة على موافقة أمريكا كى تؤجل فائدة المدفوعات على القروض الأميركية التى تستحق سدادها فى ديسمبر وقد شاهد ماكميلان يوم الاثنين ١٣–٣–١٩٥٧ بعد أن عرض بيانه الاقتصادى على مجلس العموم صحفياً أمريكيا يعرف عنه أنه صديق شخصى لمستر همفريز « Humphries » وزير المالية الأمريكى وقد شرح ماكميلان للصحفى الذى لا يمكن إزاحة الستار عن اسمه لأسباب واضحة أنه لم يمكنه أن يذهب شخصياً إلى واشنجتن لرؤية همفريز لأن أنباء رحلته سوف تسبب سحب الاسترلينى ، وقد ينتج عن ذلك أن يثير تدهوره أمراً لا يمكن تجنبه وقد سألت الصحفى أن يعمل كوسيط للحكومة

البريطانية . وفى اليوم التالى قابل الصحفى إيدن الذى أعاد بدوره طلب ماكميلان ولم يمكن نشر هذه الواقعة فى حينها لأنها يمكن أن تضر بالمصالح القومية ولكن ينبغى الكشف عنها الآن لتظهر إلى أى مدى عزلتنا سياسة إيدن عن حليفتنا الرئيسية أمريكا ، وفى نفس الوقت زادت من اعتمادنا عليها ولم يحدث فى التاريخ قبل ذلك أن وضعت الحكومة البريطانية فى مثل هذا الموقف الذليل وعلى أى حال فإن الخسائر الاقتصادية يمكن إصلاحها ولكن هناك بعض الأصول الاقتصادية التى لا يمكن إيجاد ما يحل محلها .

وإنه لأمر مشكوك فيه فيما إذا كانت خسارة شرف ومكانة بريطانيا يمكن إصلاحها كما لا يمكن الإبقاء على ثقة الجمهور فى قادته على الأقل لسنوات عديدة . . وإذا كان قدر لإيدن النجاح وأسقط عبد الناصر وصارت القناة تحت قبضة واحدة فحينذاك قد تسير الأمور سيراً طيباً بالنسبة له ويحكم على سياسة إيدن بما تمخض عنها من نتائج ويعيب القلق والاضطراب معارضى سياسته ولكن سياسته قد فشلت وما زال عبد الناصر في الحكم أقوى من وجوه متعددة عما كان عليه من قبل وأغلقت القناة وما زالت ولكنها فى أيد مصرية ولم تحصل بريطانيا على أى مكاسب منها حتى فى المدى الأخير إنها لم تحصل إلا على الخسائر فقط وفى مثل هذه الأحوال فإن السبب الذى أوضحه إيدن للعمل الذى قام به لم يكن هناك مفر من أن يخضع لاحتقار الرأى العام البريطانى .

وكان البريطانيون منذ البدء حائرين ومتعارضين وقد بين إيدن بوضوح ، فى بيانه التمهيدى الخاص بالإنذار ، أن هدفنا الرئيسى من التدخل هو وقف الحرب ولكن إذا كان هذا صحيحاً فلماذا واصلنا الهجوم على المصريين لمدة ٢٤ ساعة بعد أن أوقفوا القتال هم والإسرائيليون ولماذا ألقينا منشورات على المدن المصرية نطالبهم فيها بإسقاط عبد الناصر ولم نلق منشورات مشابهة على المدن الإسرائيلية ؟ وإلى جانب هذا فقد أعطى هيد فى نفس الأسبوع تفسيراً آخر مشيراً إلى القناة حين قال « هذا موضوع كل هذه القصة » هل كانت هذه وجهة نظر هيد أم أنها كانت وجهة نظر الحكومة بأجمعها ؟ وحتى فيما بعد لقد قال إيدن إن هدفنا فى اتخاذ إجراء فردى هو أن نخلع على الأمم المتحدة لباس القوة وأن نرغم أعضاء الهيئة على أن ينشئوا قوة دولية ولكن فى هذه الحالة لماذا لم تبذل أية محاولة لإنشاء مثل هذه القوة حتى يوم ١-١١-١٩٥٦ بعد أن أداننا مجلس الأمن مرتين بالفعل ؟ ... ولماذا رفضت الحكومة فى يناير ١٩٥٦ الطلب الخاص من حكومة العمال لإنشاء مثل هذه القوة ؟ ؟ ولماذا رفضنا مرتين أن نعاون هذه القوة حين قررت الجمعية العامة أخيراً إنشاءها ؟ . .

وبعد ذلك بحثت الحكومة بعد وقف إطلاق النار عن أعذار أخرى وفى يوم ٩-١١-٥٦ ألقى المستر ثورنكروفت خطاباً سلمياً وواضحاً فى مجلس العموم حيث قدم فيه النظرية القائلة بأن التدخل البريطانى كشف عن مؤامرة حمراء فى مصر وقال : إن الشحنات الضخمة من

الأسلحة الروسية التي استولى عليها الإسرائيليون فى صحراء سينا أثبتت أن روسيا كانت تهدف إلى السيطرة على المنطقة بأجمعها !

ولكن هذا العذر الجديد سرعان ما انكشفت حقيقته إذ لو أن الإسرائيليين اكتشفوا حقا هذه المؤامرة، فلماذا كان التدخل الأنجلوفرنسى ضرورياً ؟

وإلى جانب هذا أشارت جريدة « التمبو » إلى أن أرقام شحنات الأسلحة التشيكية التي كشف عنها فى بيان مثير لوزارة الدفاع ، ليست بالشيء الجديد :

فقد نشرت التمبو فى ٣٠ - ١٠ - ١٩٥٦ فى اليوم الذى سلم فيه الإنذار ، وقد عرفت الحقيقة لمدة شهور تالية ، وإذا عدنا إلى شهر يونية نجد أن السفارة الإسرائلية فى لندن وزعت تقديرات وأرقام عن أسلحة الستار الحديدى الموجودة فى مصر

وفى نهاية شهر سبتمبر كان التقدير الذى جمع هو : ستحصل مصر على ما يتراوح بين ١٥٠ - ٢٠٠ من مقاتلات ميج ، ٧٠ قاذفات « اليوشين » ، ٢٠٠ من دبابات ستالين . ت ٣٤ هذه الأرقام نشرت فى جريدة « نيوستيتسمان اندنيشن » بتاريخ ٢٣ يونية ١٩٥٦ وقد أمكن للحكومة الحصول عليها فى ذلك الوقت .

وكانت أكثر إزعاجاً من أرقام وزارة الدفاع بتاريخ ١-١١ - ٥٦ وإذا حكم على الموقف فى نوفمبر بأنه خطير فلماذا لم يتخذ أى إجراء فى شهر يونية ؟ وفى كثير من المناسبات منذ سبتمبر ١٩٥٥ لفت حزب

العمال نظر الحكومة إلى كمية الأسلحة التشيكية المصدرة إلى مصر وطلب اتخاذ إجراء بشأنها وفى كل مناسبة وقفت الحكومة على أساس أنه ليس هناك ما يتطلب اتخاذ مثل هذا الإجراء .

أما المناسبة الأخيرة فقد كانت فى أوائل أغسطس وذلك قبل العطلة بوقت قصير . فهل كانت الحكومة كاذبة فى أغسطس أو أنها كاذبة الآن فى نوفمبر ؟ وبعد بيان ثورنكروفت بأسبوع أرغم سلوين لويد على الاعتراف لمجلس العموم بأن المعلومات التى ذكرت فى التقرير الصحفى لوزارة الدفاع كانت فى الحقيقة تحت يد الحكومة يوم ٢٩ أكتوبر قبل العدوان الإسرائيلى هذا الاعتراف حدد بوضوح تأجيل قصة « الرعب الأحمر » بالرغم من أنه ما يزال يتردد صداها فى بعض صحف حزب المحافظين وفى خطابات أعضائه فى المحافل والمدلك فإن الأسباب التى بررت بها الحكومة اتخاذ هذه الإجراءات ليست متعارضة فقط ولكنها أيضاً غير شريفة ومثل هذا السلوك لا يمكن إلا أن يطيح بالثقة فى الرأى العام البريطانى سواء فى الداخل أم الخارج ولكن هل هذا هو كل شىء ؟ لسوء الحظ لا . . . فما زال هناك موضوع الاتفاق السرى . . وكما بينا فى الفصل السابع فإن الخطوط التاريخية للحوادث بين ١٤ سبتمبر و ٣٠ أكتوبر تشير بقوة إلى أن إيدن ولويد قد اتفقا مع بينو وموليه فى اجتماع باريس السرى يوم ١٦ أكتوبر بأنه فى حالة وقوع عدوان إسرائيلى على مصر فإن عمليات البراشوت يمكن أن تبدأ وعلى أساس هذا الاتفاق رتب الفرنسيون مع الإسرائيليين أن يشن الهجوم يوم

٧ نوفمبر ولكن كما شرح سابقاً أرغم تصريح إيزنهاور الإسرائيليين إلى أن يعجلوا بموعد الهجوم ، وإلى أى مدى ساهمت الحكومة البريطانية بنصيب فى هذه المفاوضات ؟ إن لدينا قليلا من الشك فى أن تبادل البرقيات اللاسلكية بين فرنسا وإسرائيل التى تقع الآن فى حوزة الحكومة الأمريكية تشير إلى أن إيدن ولويد يعلمان الخطوط الرئيسية للمؤامرة وقد كشف عن هذه المعلومات فى بيان موجز لدالاس للمراسلين الأمريكيين فى واشنجتن مساء ٣٠ أكتوبر ومنذ ذلك الحين أذيعت بيانات أكثر فى جريدة « نيويورك تيمز » عن طريق وزارة الخارجية الأمريكية . ومن المؤكد أن مستر هيد كان مشتركاً أيضاً وقد ذكر قلم المخابرات العسكرية فى العقبة أن نية إسرائيل للعدوان على مصر كانت قبل ٣٠ أكتوبر وأن تقارير — يبدو أنها مؤكدة — قد قدمها ملحقنا العسكرى فى تل أبيب ، إن فشل مستر هيد فى أن يبعث بهذه المعلومات إلى الأعضاء الأمريكيين للهيئة الثلاثية فى واشنجتن أو لبعض زملائه فى المجلس — يبدو أنها لا تدع مجالا للشك فى أنه كان مثل العضو المعارض فى فرنسا مسيو بورجيه مونورى — شريكاً فى هذه المؤامرة ويبدو أيضاً أن بريطانيا مثلها مثل فرنسا قد أعطت إسرائيل تعهداً بأنهما سوف يؤجلان تنفيذ الإجراء الثلاثى .

وبعد ذلك فهناك قليل من الشك فى أن ثلاثة أعضاء من مجلس الوزراء البريطانى كانوا يعلمون بنيات إسرائيل ويشجعونها ، ولكن هل ذهب اشتراكهم فى الإثم إلى أبعد من هذا ؟ إنها الآن حقيقة

ثابتة فى أن فرنسا قد أعطت معونة عسكرية للإسرائيليين فى حملةسيناء وتبعاً لما ذكره مراسلو النيوسيتسمان والمانشستر جارديان ورويتر والأسوشيتدبرس فإن «قاذفات القنابل المقاتلة الميستير التى يقودها طيارون فرنسيون قد ساعدت قوات إسرائيل البرية فى سيناء ومنحتها غطاء جويا حامياً فوق تل أبيب والمدن الإسرائيلية الأخرى ، وقد كشفت المحادثات مع هؤلاء الطيارين الفرنسيين عن أنهم وصلوا إلى إسرائيل قبل يوم ٣٠ أكتوبر بأسبوع وهو يوم الهجوم . وقد أرغمت وزارة الدفاع الفرنسية بعد أن أصدرت نفياً تقليدياً عن هذه التقارير على أن تنشر تغييراً معدلا اعترفت فيه بأن الخبراء الفنيين فى القوات الجوية كانوا فى إسرائيل قبل حصول الهجوم على سيناء . وقد صرح مسيو « لافورست » وزير الدولة الفرنسى للشئون الجوية يوم الثلاثاء ٢٠ نوفمبر فى اجتماع عقد « بليونز » بأن الطيارين الفرنسيين العائدين من الجبهة قد قاموا بأعمال جريئة لن يعرفها إطلاقاً الرأى العام ، وقد حاول متحدث رسمى فيما بعد أن يغطى هذه الزلة بقوله إن الوزير يشير إلى الرقابة العسكرية . ولكن إذا كان الأمر كذلك فلماذا استخدم « لافورست » صيغة المستقبل ؟ حتى الحكومة البريطانية لم تبذل أية محاولة لنفى مثل هذه التقارير فبينما تفسر على أن بريطانيا لم تمنح أى مساعدة عسكرية للإسرائيليين فإن متحدثيها كانوا يحاولون أن يتجنبوا الإشارة إلى الدور الذى لعبه الفرنسيون وقد نفى سلوين لويد يوم ٢١ أكتوبر أن بريطانيا قد استفزت إسرائيل كى تهاجم مصر ولكنه كان حريصاً على ألا يحرج نفسه بخصوص الدور الذى لعبته

فرنسا . أما المتحدثون الآخرون عن الحكومة مثل مستر بتلر فقد كانوا راضين بترديد نغمة النفى التى سبق أن ذكرها إيدن ولويد وقد ظهر أنهم غير راغبين فى أن يلزموا أنفسهم شخصياً بالبيايات التى قد أثبتت الأحداث المقبلة أنها غير صحيحة . ولم ينف مستر بتلر الادعاءات الخاصة باجتماع ١٦ أكتوبر فقد بين ببساطة – فى إجابته عن الأسئلة فى مجلس العموم – أن الحكومة لم تكن تنوى الإفصاح عن المداولات السرية بين رؤساء الحكومات وبينما كانت الأسابيع تتعاقب ويتضح الدليل تلو الدليل وتبدو تفاهة الإنكار وعدم صحة بيانات النفى كانت أغلبية الرأى العام البريطانى تميل إلى تصديق وجود مؤامرة الاتفاق السرى كحقيقة ثابتة كما قبلت صحة أغلبية الرأى العالمى منذ البداية .

هذا وبينما ينبغى لكأس المذلة أن يتجرع حتى الثمالة ، أرغم مجلس الوزراء البريطانى على الأمر بوقف إطلاق النار وأن يؤجل الخطط التى تهدف إلى احتلال منطقة القناة بأجمعها لأن أمريكا لن تضمن الوقوف إلى صفنا لمعاونتنا إذا ما أرسل المتطوعون السوفييت إلى مصر . وحينما صوتت الأمم المتحدة لتكوين وإرسال قوة دولية بأقصى سرعة إلى المنطقة أعلن سير أنتونى إيدن أن القوات الأنجلو – فرنسية سوف تسلم الأمور للقوات الدولية التابعة للأمم المتحدة فقط على شرط أنهم كانوا مقتنعين أن القوة الدولية كانت فعالة . وقد افترض فى حزب المحافظين أننا لن ننسحب حتى تفتتح القناة وتقبل مصر الإشراف الدولى على القناة وحتى تفرض اتفاقية صلح بين العرب وإسرائيل . ويمكن للحكومة بمقتضى

هذه الظروف أن تتظاهر على الأقل بأن الإجراء على الرغم من نتائجه المؤلمة قد حقق أهدافه .

ولكن ظهر أن ضمان هذه الشروط يبدو أمراً مستحيلا فإننا الآن السجين الاقتصادى لأمريكا وقد أوضحت واشنطون أن القوانين المانعة للتوسط لن تلغى وبهذا تسمح لشركات البترول الأمريكية بأن تنسق عملياتها كى تمد أوربا الغربية بالبترول وأنه لن تكون هناك أى معونة مقبلة بالدولار .

ولم توافق بريطانيا على قبول مشروع الأمم المتحدة بدون قيد أو شرط وتسحب كافة قواتها بمنتهى السرعة . وقد ظل إيدن بعض الوقت عنيداً ولكنه بدا يوم ١٩ نوفمبر وقد استسلم مجلس وزرائه وقد اتخذ القرار الأساسى القاضى بالخضوع لرغبة أمريكا . ثم اعترف إيدن — الذى حثه مستر بتلر — بأنه يعانى من انهيار عصبى وسافر إلى « جاميكا » لأجازة تبلغ ثلاثة أسابيع وكان من نتيجة هذا أن ازدادت موجة النقد ضده وقد كتب راندولف تشرشل فى خطاب إلى المانشستر جارديان يقول فيه إن الإجراء الوحيد المعادل لوضع القوات البريطانية فى مصر المعلق فى بور سعيد هو رفض هتلر سحب جيشه من عدة خرائب أمام ستالينجراد وأضاف :

ولكن حتى هتلر نفسه لم يقض الشتاء فى جامايكا .

وقد حاول مجلس الوزراء يائساً — لمدة تقرب من أسبوعين — أن ينقذ شيئاً من هذه الهزيمة وأن يحصل من واشنجتن على بعض الامتيازات

الطفيفة حتى يمكنه تقديمها للمعارضين فى المقاعد الخلفية .

وفى إحدى المحاولات سمح له ١٢٠ عضواً من المحافظين تحت الضغط بأن يدرجوا قراراً يوجهون فيه اللوم العنيف لأمريكا والأمم المتحدة

وقد بذل سلوين لويد فى هيئة الأمم المتحدة بنيويورك محاولات مثيرة كى يعرقل خطط الدول الصغيرة .

ولكن ذلك لم يسفر عن نجاح فى يوم ٢٤–١١–١٩٥٦ وافقت الجمعية العامة بأغلبية مطلقة على مشروع قرار تطالب فيه القوات الأنجلو – فرنسية بالانسحاب مقدماً وقد صوتت أمريكا مرة ثانية ضدنا وقد تمهل سلوين لويد لبضعة أيام أخرى ولكنه استسلم يائساً وعاد إلى لندن وبذا حانت لحظة الكشف عن الحقائق .

وفى يوم الاثنين ٣ ديسمبر راقب مجلس العموم الخطوة الأخيرة فى مأساة السويس فأعلن سلوين لويد بعصبية وعدم ارتياح الانسحاب العاجل للقوات المتحالفة من مصر .

ولم يكن بيانه بياناً بالمعنى المفهوم وإنما كان محاولة يائسة كى يرتب ادعاءات الحكومة البريطانية بأن تدخل هذه القوات قد نجح – فوق كل شيء – فى تحقيق أهدافه وسرعان ما أتى الوقت الذى لا يمكن فيه لأى مهارة عملية أو طمس للحقائق أن تقضى على الحقيقة الماثلة .

وقد ظلت مقاعد المحافظين فى صمت المغيظ .وضحك الأعضاء العمال وابتهجوا وحينما أتم لويد حديثه نهض بيفان ليعلن أن المعارضة رحبت بقرار الحكومة الخاص بالخضوع للأمم المتحدة .

وقال بتهكم : « إننا نعطف على السيد المحترم إذ ينفخ فى بوق التقدم لكى يستر هزيمته .

وإنى مضطر إلى أن أقول إننى لن أستمر فى التحدث عن الحكومة حتى لا نحرجها » .

وقد انتهى المنظر بمداولات مرة وخاصة بين الحكومة ومؤيديها وقد ألقى الكابتن وترهاوس اللوم على الحكومة لفشلها فى سياستها بالنسبة للمعارضة وقد قفز لويد وقال إن سياسته قد نجحت وقد وصف جوليان آمرى الانسحاب بأنه إجراء ذليل ولكن لويد نفاه ثانية وقد سأل عضو آخر من جبهة السويس هو سير لان هوروبين :

« هل يمكن لصديقنا المثقف النبيل أن يؤكد لنا الآن أننا وافقنا على سحب جيشنا من مصر بدون أى ضمانات فعلية لمصالحنا الحيوية وأن الموافقة الأمريكية الضرورية ستأتى بمضى الوقت لعودة رئيس وزرائنا ثانية من جاميكا ؟ »

ونتج عن هذا موجة من التصفيق من جانب المعارضة احمر منها لويد خجلا وأعقب ذلك موجة أخرى من الضحك حينما سأل مستر دينيس هيلى لويد لكى يضع احتمال تقديم جائزة نوبل للسلام لرئيس الوزراء على أساس أنه نجح فى المظاهرة التى تثبت أن العدوان ليس له من ثمن ؟ . . . . .

كانت هذه هى النهاية .

ففى اليوم التالى تحدث مستر ماكميلان فى مجلس العموم عن الحالة

الإقتصادية التى تدعو لليأس .

فقد كان نظام البطاقات قد طبق بالنسبة لتوزيع البترول..

وكان لا بد من زيادة ثمنه وهناك احتمال بزيادة الضرائب .

وقد انخفض الاحتياطى من الذهب والدولارات فى نوفمبر – أكثر من ١٠٠ مليون دولار – وهذا يعنى أننا لا بد أن نستجدى من واشنطون . وأجريت المناقشة النهائية عن السويس يومى الأربعاء والخميس من نفس الأسبوع ولكن هذه المناقشة لم تأت بجديد . ووصلت أنباء قبل الانقسام عن ثورة على نطاق واسع بين المقاعد الخلفية للمحافظين ولكن خمسة عشر منهم فقط هم الذين هددوا أما الباقى فقد بلعوا كلماتهم وكبرياءهم وأيدوا الحكومة بعد ذلك . .

والمحافظون لديهم غريزة المحافظة على النفس وهى بالنسبة لهم الملجأ الأخير والأقوى . وقد واجه حزب المحافظين عاصفة باردة من السخط ولم يكن من الممكن أن تمر إلا باتحادهم معاً . . ولم تنته مغامرة السويس بضربة قوية ولكن بالبكاء والعويل .

والثمار المرة التى تمخضت عنها حرب السويس هى أمة وصمت بالعار وحكومة بدا للعالم أنها تتألف من معتدين ومتآمرين ، واقتصاد يحيق به الخطر وانقسام الكومنولث وتصدع التحالف ، وفى أسبوع واحد من المغامرة الرعناء فقدت الأمة ممتلكات قومية قضت عشرات الأعوام بل القرون فى جمعها . وفى الوقت الذى تنهار فيه قوتنا الحربية والإقتصادية ، كان المصدر الرئيسى لنفوذنا فى الشئون الدولية هو ادعاؤنا بأن مركز

الثقل فى العالم من الناحية الأدبية هو وستمنستر ولم يكن هذا ادعاء فارغاً وإذا أردنا أن نبرزه فيمكن أن نشير إلى سجلنا فى الحربين العالميتين الماضيتين وإلى قرن من السياسة الإنجليزية الخارجية حين كانت المحافظة على ميزان القوى وحقوق الدول من اختصاصاتنا الرئيسية . ولقد أيدنا مبدأ قدسية الاتفاقات الدولية وحافظنا على السلام عند ما كان فى إمكاننا أن نحافظ عليه .

وكنا نشن الحرب لقمع العدوان فحسب ، وعند ما تفشل كل المحاولات الدبلوماسية . وكان من نتيجة ذلك أن كسبنا ثقة الدول الحرة واحترامها .

وفى عام ١٩٣٩ حذر الكونت بوكنر « Puekner » الشعب الألمانى بقوله :

« إن حكام بريطانيا العظمى لا يمكن أن يستخدموا قوتها بطريقة تعسفية وهم لا يستطيعون أن يستخدموا هذه القوة لتأييد عمل يستنكره الشعب البريطانى والرأى العام العالمى ويعتبره عملا غير أخلاقى . . وإذا قامت سياسة بريطانيا مع دولة أخرى على أسس غير أخلاقية فإن العالم سيرى أن دبلوماسية بريطانيا الشهيرة قد حرمت من سلاحها القوى بعد أن يصبح عقيماً » .

هذا هو ما رأيناه بالفعل. فقد نبذ الرأى العام العالمى بريطانيا واعتبرها لا تمت إلى الأخلاق بصلة واضطررنا فى أقل من أسبوع إلى التخلى عن محاولتنا لإخضاع مصر بالقوة المسلحة .

وافتضح الضعف الحقيقي لبريطانيا وهو الضعف الذى حاولنا إخفاءه بقدرتنا على تنظيم الرأى العالمى وقد نستعيد بعض النفوذ الذى كنا نستمتع به ، ولكن سيكون من المستحيل أن نقوم بنفس الدور الفريد المشرف كحفاظ على الضمير العالمى .

وليس هذا كل ما فى الأمر فهناك ضربة قاتلة سددت إلى الأسس التى يقوم عليها مجتمعنا . . فإن نظامنا الديموقراطى الحديث الذى كنا نباهى ونفتخر به فى العالم ، هو أداة فعالة للحكومة ، ليس بسبب كيانه الدستورى — الخاطئ والذى يقوم على الفوضى والبعد عن المنطق — ولكن لأن هناك ثقة شعبية فى الذين يقومون على تنفيذه . . وفى قلب وعينا السياسى كانت هناك فكرة أن وزير التاج البريطانى هو رجل شريف فإذا تحطمت هذه الفكرة فلا بد أن يؤدى ذلك إلى إلحاق الأذى بالنظام ، وبثقة الشعب فيه .

وفى الأسابيع القليلة الماضية ، كنا نرى الوزراء البريطانيين يكذبون على مجلس العموم وعلى حزبهم وعلى الشعب . . ولقد ألقوا بأكاذيبهم إلى الأمم المتحدة وإلى حلفائهم . وعند ما انكشف الكذب حاولوا التستر باختلاق أكاذيب جديدة ، وأمام هجوم ضمير الرأى العام أثاروا جميع الغرائز الحقيرة التى تعفنت تحت غشاء حضارتنا وحاولوا عن طريق بعض الصحف المنحطة ، أن يحركوا كوامن الأعماق ورواسب العنف وكراهية الأجناس ، وفى كل هذه الأفعال جروا معهم كل أتباعهم ، وبهذا ألحقوا العار بحزب له تاريخه المجيد . ولن يكون من السهل على نظامنا أن يسترد

مكانته التى فقدها بسبب هذه الضربات ، والحقيقة أنه لن يستعيدها . لقد وصلت حياتنا السياسية إلى مستنقع آسن . ومن المحتمل أن نسير من الآن فصاعداً فى الطريق الذى تتبعه فرنسا وهو طريق ملىء بالأكاذيب والفساد وبالخديعة وانعدام الثقة فى الهيئات الديموقراطية . . إن قوتنا القومية فى طريقها إلى الانحلال ، ولربما كانت مستوياتنا الشعبية تنحل هى الأخرى . . ولا بد من إعلان حقيقة المخازى التى تمخضت عن هذا الإجراء المشين الآن وبسرعة قبل أن تزداد الانقسامات فى الرأى وحيث لا تزال هناك بعض الموضوعية فى عقل الشعب . . ويمكن إجراء تحقيق الوقائع وتقرير الحقائق . . ولا بد من أن يترك الشعب البريطانى ليصدر الحكم ولا يزال كثير منا يعتقدون أن حكم الشعب سيكون عادلا وشريفاً .

إن زعماءنا رجال آثمون وما داموا لم يلقوا جزاءهم فسنظل نسعى جميعاً بحثاً وراء الحقيقة .

الفهرست

تم طبع هذا الكتاب على مطابع
دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٧

مجموعة "اخترنا لك"

تصدر شهريًّا باللغات العالمية

ويشترك فى تحريرها وإعدادها

عبد القادر حاتم "المشرف على اللجنة"

محمد مصطفى عطا

الدكتورة سهير القلماوى

الدكتور حسين مؤنس

الأستاذ على أدهم

الدكتور عبد الحميد يونس

الدكتور محمد يحيى عويس

الطابع والناشر

دار المعارف بمصر

ملتزم التوزيع مؤسسة المطبوعات الحديثة